ثغرة في الطريق المسدود

دراسة في البعث الحضاري

تأليف

د. سيد دسوقي حسن
أستاذ هندسة الطيران
كلية الهندسة - جامعة القاهرة

د. محمود محمد سفر
وكيل وزارة التربية والتعليم
المملكة العربية السعودية

سلسلة تصدر عن دار آفاق الغد بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٤٠١هـ — ١٩٨١م

دار آفاق الغد :

٢ ش شريف [عمارة اللواء] شقة ٧٢ دور ٦

ت : ٧٥١٧١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

ثغرة فى الطريق المسدود

أنشودة

إلى الفكر المشرب بالإيمان فى أفئدة الرجال
إلى الماء الطهور فى بطون السحب الثقال
إن أرضنا الظمأى تنتظر انهمارك
ولسوف تنمو بنعمة الله زروع باسقات
لها طلع نضيد ...
فتطيب برحمة الله الحياة ... ويحلو الرضا
وعلى الله قصد السبيل ...
ومنها جائر ...
ولو شاء لهداكم أجمعين ...

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

بقلم د. أحمد كمال أبو المجد

أحسست عند قراءة الأسطر الأولى من هذا البحث أن ينبغى عمل تقديم له ، فهو ليس مجرد تحليل لواقع أمة ، ولا هو محض اختيار لواحد من بدائل الإصلاح المعروفة فى ساحة العمل العربى والإسلامى . . وإنما هو جزء من تيار جديد فى الإصلاح ، وهو تيار ـ فيما أرى ـ لا ينفرد به هذا البحث . . كما أنه لا يعرضه بتمامه وكل تفاصيله .. وإنما يضع القارىء بين يدى منهجها الأساسى . ويطوف به على بعض معالمه الرئيسية .. تاركا لمؤلفات لاحقة .. ولكتاب آخرين .. أن يسهموا فى إتمام صياغة المنهج الجديد ، وتحديد معالم التيار الذى ينتمى إليه ويبشر به .

والكتاب فيما أعلم وفيما يجد القارىء فى غير عناء ، قطعة غالية من نفس المؤلفين وفكرهما وعاطفتهما . . أودعا فيه « رؤيتهما » الخاصة لكيفية إمساك العالم الإسلامى بطرف الخيط فى محاولة النهوض والتقدم وسط تحديات هائلة بعضها موضوعى

خارجى ، وكثير منها ذاتى داخلى .. ولن يستطيع القارىء متابعة أجزاء هذه الرؤية والتفاعل معها إلا إذا تبين أولا حقيقة الأفق والمستوى الذى يعالج فيه الكاتبان له مشكلة النهضة الحضارية للمسلمين .

إن القيمة الحقيقية للدراسة التى بين أيدينا أنها تجاوزت فى صمت وهدوء آفاق الجدل الطويل الذى يملأ على المسلمين حياتهم منذ عشرات السنين والذى يدور كله فى حلقات مفرغة من المفاضلة بين ثنائيات مطلقة لاوجود لها إلافى خيال المتجادلين .. أن الحديث الطويل عن خلود الإسلام وصلاحيته للتطبيق فى كل زمان ومكان . واستغناء المسلمين به عن كل نظام وكل مذهب قد تحول عند كثيرين فى ساحة الفكر الإسلامى إلىعقبة حقيقية فى طريق العمل « لتغيير » أوضاع المسلمين .. فباسم هذا الخلود حورب التجديد ، وضاقت العقول والصدور عن النظر ـ مجرد النظر ـ فى أى جديد . . وباسم المصدر الإلهى للاسلام وشريعته ، ألغى اعتبار الزمان والمكان .. وباسم « التعبد » بالإسلام فى عقيدته وشريعته ، هون هؤلاء من البحث فى مصالح الناس .. لقد تحول «العمل» الإسلامى ـ للاسف ـ إلى حديث مكرر عن عظمة الإسلام . . وفضل المسلمين فى سالف الأزمان .. وإلى حديث آخر معاد كذلك عن فساد الحضارة الغربية وانحلال أهلها .. وتحول هذا الحديث ـ وخصوصا عند الشباب ـ من رأى علمى تساق له الأدلة العقلية الموضوعية ، إلى

موقف نفسي وعاطفي .. سد منافذ التأمل المادي، عند كثيرين .. وفوت الفرصة الحقيقية للبحث النافع عن أول الخيط ، وبداية الطريق لحركة المسلمين على طريق النهوض والتقدم والإصلاح .

وفى هذا الجو الملتهب بحرارة الحماس « للاسلام الخالد الذى لا يحتاج إلى سواه ولا يقبل التطعيم بغيره » امتلأت سوق الفكر بآلاف من الكتب والمقالات ، تتحدث عن الاقتصاد الإسلامى ، والتشريع الإسلامى ، والنظام السياسى الإسلامي .. والدستور الإسلامى .... حديثا يكتفى بسرد « العموميات » وتسوده نزعة « الدفاع عن الإسلام » كما لو كان الإسلام موضوعا فى قفص اتهام . وتاهت بين أصابع المدافعين حقيقة المشاكل التى يعيشها المسلمون .. وحقائق التغيير الاجتماعى التى أودعها الله بين خلقه ، ناموسا لا يتغير ، وسنة جارية ، تماما كما أودع - فى عالم الطبيعة والأفلاك ، سننه ونواميسه .. لا تتخلف سنة منها ، ولا يتوقف ناموس .. « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار » .

إن قصارى ما تنتهى إليه هذه المحاكمات النظرية .. التى يدافع خلالها المتحمسون للاسلام عن كل ما يرتفع فوقه شعار الإسلام .. هو إصدار إعلان مزدوج بعظمة الإسلام من ناحية .. وبادانة التجارب الإنسانية التى تمت خارج حدود الإسلام الجغرافى أو التاريخى من ناحية أخرى .

وما بهذا يخدم الإسلام والمسلمون .. أن مثل هذا الإعلان

المزدوج لا يزيد على أن يكون مصدر « سعادة وإمتاع ذاتى » للذين يعلنونه ويسيرون وراء شعاراته .. ولكنه لا ينقص قلامة ظفر من مشاكل المسلمين .. ولا يحرك ركبهم قيد أنملة عن مواقعه الراكدة الجامدة رغم حركة الدنيا الهائلة من حولهم ..

إنما يخدم المسلمون .. بالصدق فى وصف مشاكلهم .. والإنصاف فى رؤية « الذات الإسلامية » ، ورؤية « الغير » ، غربيا كان أو شرقيا كما يخدم بالقصد المباشر إلى تحريك « واقع المسلمين » توجها نحو غايات الإسلام ومبادئه العليا ، باستخدام أكثر أدوات التحريك قدرة وفاعلية ، وبالتعامل الحر الطليق مع نواميس الكون التى أبدعها الله وأجرى حكمها بين عباده جميعاً ، طائعهم وعاصيهم ، برهم وفاجرهم .. لا يستثنى منها أحد ..

وهذا — فيما نرى — هو المنهج .. فلم تعد القضية عندهما أن ينتصرا للاسلام ، بالحجة والكلمة ، أو أن يدافعا عنه فى وجه تهمة مفترضة وإنما صارت القضية أن « يسهم » البحث فى تحريك وتوجيه واقع المسلمين الذى يجرى بهم وسط موج كالجبال من التحديات القديمة والجديدة ..

وهكذا ،وفى ظل هذا المنهج تحولت قضية «الإسلام والغرب» من مساجلة كلامية يهوم أطرافها فى العموميات .. إلى بحث علمى مجهرى فى المكونات الداخلية لكل من حضارة الإسلام، وحضارة

الغرب . . وإلى طلب جاد مخلص للحكمة التى جعلها الله تعالى ضالة المؤمنين . .

ولعل أهم ما استخلصه البحث وعرضه فى وضوح وصدق أن النهضة الحضارية لا تحقق بمجرد إعلان المفاهيم والأخلاقيات التى تقوم عليها الحضارة وإنما تتحقق باقامة مؤسسات حضارية نابعة من تلك المفاهيم والأخلاقيات . . وأن جوهر المحنة التى تعيشها محاولات الإصلاح الإسلامى « إننا لا نعرف أننا لا نملك النظم الحاكمة للمؤسسات المطلوبة ، وكل ما نملكه مجموعه من المبادىء والقيم التى يمكن أن تنبثق عنها النظم المرجوه » . .

كذلك استخلص البحث أمراً بالغ الأهمية وعظيم الأثر فى تحديد مستقبل المحاولات التي يشهدها العالم الإسلامي للوصول إلى الاقلاع الحضارى . . وهو تحديد « المختصين» بممارسة المهام المختلفة الضرورية لإنجاز هذا « الإقلاع » . . ويشكو بحق أن إحدى مشاكلنا أننا نضع عبء إبداع البدائل (فى شأن هذه المؤسسات) على المتخصصين منا فى علوم التراث الإسلامى من فقه ولغة وسيرة وتفسير ومنطق وفلسفة . . وان هذا لظلم عظيم ، مع أن « إبداع البدائل لا بد أن يضطلع به متخصص فى دراسات النظم التى تحكم مؤسسات شبيهة بالمؤسسات المرجوة » .

ويتصل بهذا الاكتشاف الصائب الدقيق ماأعلنه في وضوح لا بد أن يصدم كثيرين من « حملة الشعارات » من تفسير أمين لشمول

الإسلام ، و كفاية مصدريه الرئيسيين ، كتاب الله وسنة رسوله .... فهذه الكفاية - عند المؤلفين - لا تعنى - كما يوهم كثيرون - أن فيهما تفاصيل النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . . وإنما الحقيقة التى نوافق عليها تماما أن « الكتاب والسنة قد اشتملا على كل المبادىء والأخلاقيات الكافية واللازمة لانبثاق نظم حضارية . ولكن النظم الحضارية نفسها هي محاولات بشرية تنطلق متحررة من كل القيود إلا القيود الأخلاقية والمبادىء التي يحددها الكتاب والسنة إن هذا التمييز بين «العقائد الإيمانية» وبين «الطرائق العقلية» فى تراث الإسلام وفى مكنوناته الحضارية التى نعيش عليها يشكل أحد المفاتيح الرئيسية للانطلاق نحو « الإقـــلاع الحضارى » المتحرر من عقابيل التخويف المستمر بالخروج عن الإسلام فى طلب ما ينفع الناس . . وهو مفتاح يحرص عليه البحث ويدافع عنه . . منتقلا به فى جسارة من دائرة الأفكار إلى دائرة النظم ، قائلا فيها جميعاً « أن الأفكار يجب ألا تورث مع الأرض والعقار ، وإنما مهمة كل جيل أن يبصر لنفسه ، فلن نقبل على الله يوم القيامة جماعات وأمما وإنما سنقبل أفرادا » . . ثم يقول أن ديناميكية الأفكار تستدعى دينا ميكية النظم « وأن كل نظم البشر قديمها وحديثها ينقصها الكمال وليس فيها شيء مقدس » . .

ومن المفاتيح الهامة لمنهج النهضة الحضارية « موقفهما الصريح من حضارة الغرب ، وتقريرهما - دون تردد - أنها حضارة قامت على

أساس العلم ، وأننا - فى مواجهة تحديات العصر - لا بد أن نكون قادرين على استيعاب حضارته ، وهو استيعاب لا سبيل إليه إلا عن طريق شحذ الفعالية العلمية للأمة عن طريق جهازنا التعليمى المتطور ولهذا يضعا إصلاح الجهاز التعليمي على رأس قائمة الإصلاحات الضرورية المباشرة للنهضة الحضارية على الأسس الجديدة التى يقدماها ..

وبعـــد ..

فهذا بحث من نوع خاص ، حشدت فيه أجزاء منهج فى الإصلاح الإسلامى لا تحركه روح الدفاع عن شيء أو الانتصار لأحد .. كما لا تحركه الحساسيات التاريخية الموروثة التى تهدم الموضوعية وتضيع معها رؤية الواقع .. وإنما يحركه حرص واع على إعلاء القيم والأخلاقيات الأساسية التى هي جوهر الإسلام .. ورؤية دقيقة « للحركة الداخلية » لعمليات النمو الحضارى ، ومعرفة دقيقة بمكونات هذه الحركة كما تمت فى حضارة الغرب ..

وإن رؤية يحدها هذان الحدان من حدود المعرفة ، ويجللها هذا القدر من صفاء الإيمان .. ودقة المعرفة .. لجديرة بأن يقف معها القارىء وقفة متأنية ، يقرأ أجزاءها مرة بعد مرة .. ويفك بعض رموزها التى تعكس إلف المؤلفين بالعـــلوم التطبيقية ومصطلحاتها .. وتمرسهما بقواعدها وفروعها ..

أن العالم الإسلامى يموج من حولنا بنداءات وشعارات زادها من حسن النية وصدق التوجه زاد كبير .. ولكن نصيبها من

الموضوعية والقدرة على فهم الواقع والتعامل مع سننه ونواميسه زاد ـ مع الأسف ـ ضئيل . . ويأتى هذا البحث كالبصيص من الضوء . . بين يدى نور غامر . . هو نور الإســلام الحق . . المبرأ من موروثات الأفكار الجامدة . . وأضغان النفوس المائجة . . وبقايا المعارك الكلامية التى ملأت على المسلمين حياتهم حين خلت تلك الحياة من ومضات الحركة الفعالة والفعل المؤثر . .

وماأحسب هذه الومضة إلا بشيرا بين يدى النور الغامر .. الذى ينتظر مجيئه الكثيرون . .

د . أحمد كمال أبو المجد

مقـــدمة

كان الحفل إحدى هذه المناسبات السياسية التى ابدعها الطلبة العرب فى الولايات المتحدة الأمريكية احتفالا بمولد وعد بلفور على عادة المثقفين العرب فى تقليد الدراويش وما ابتدعوه من موالد ذكرى لكل قطب من أقطاب الصوفية المرموقين . . . وانشغلت الكوادر المختلفة بإعداد البيارق والأعلام وإعداد السيوف الخشبية التى سيلوح بها الخطباء فى اليوم المشهود على منبر الخطابة أمام جمهور الأعداء والأصدقاء .

وانشغل أهل الفكر من ورثة الدراويش بما سيقولونه فى اليوم المشهود . . .

وانشغلوا بالذات بتحديد المنطلقات التى سيطرحون من خلالها وجهة نظرهم فى وعد بلفور خاصة والقضية الفلسطينية عامة . . فلابد أن تكون المنطلقات ثورية غير رجعية . . ولكن أى نوع من الثورية يجب أن ترده الشفاه . . إن الثورية قد دق معناها عند الدراويش الجدد فأصبحت ضرباً من العموميات تلاك ولا تهم . . واقترب موعد المؤتمر المشهود وفلاسفتنا ما زالوا يحاور بعضهم

بعضاً . . ويتجادلون . . هل يصدر بيان بخيانة هذا الزعيم أو ذاك بجانب ما سيصدر عن المؤتمر من توصيات تطلق كصواريخ العيد في فضاء السياسة الواسع العريض ؟ . . ويضطرب المربوطون بخيوط دقيقة بأسوار السفارات لما يمكن أن تسببه بيانات الخيانة من إحراج لهم . . وترن أجراس الهاتف جيئة وذهوباً . . وتبدأ معارك وهمية في كواليس المثقفين الدراويش .

ويباغتنا المؤتمر . . ويتبرى الخطباء الفرسان . . في زنزانة التاريخ يتجادلون ويتحاورون . . والحارس قد أحكم المزلاج . . وأدار أجهزة التسجيل ليدرسها فيما بعد في معامل مخلوقات المستعمرات .

وقام رجل من تلاميذ مالك بن نبي وألقى بسيفه الخشبي جانباً وقال :

« أيها المثقفون العرب . . أنتم أخطر داء أصيبت به أمتنا . . وإنهم ليقولون في علم النفس إن انفصام الشخصية هو أخطر ما يصيب الإنسان . . ولقد أصيبت أمتنا بانفصام شديد في شخصيتها الثقافية على أيديكم فأصبح يساركم ألف يسار ويمينكم ألف يمين . . ولقد ابتليتم بشهوة الكلام وكراهية العمل . . وماترونه من تعدد ألوانكم ونحلكم هو في جوهره لون واحد ونحلة واحدة . . اسمها اللاعلمية وقلة التقوى سواء رفعتم شعار الدين أو أى مذهب من مذاهب الأرض . . وسواء ارتديتم مسوح الرهبان

أو قمصان الثوار . . وأن ما يرتكبه السياسى اليوم من أعمال تنكرونها عليه إنما هي قرارات صنعتها حماقات جيلكم وأجيال قبلكم . . فالسياسى مهما أوتى من عبقرية الساسة ودهاء الحكام مسجون فى حماقات أمته الحضارية . .

وما أصدق الإمام على كرم الله وجهه إذ قارن رجل بينه و بين عهدى الصديق وعمر رضى الله عنهما فقال الإمام علي موضحاً : « لقد كان الصديق وعمر يحكمان أمثالى وأنا أحكم أمثالك » .

واستطرد تلميذ مالك فى حديث مثير عن مشكلات النهضة العربية .

وانتهي هذا المؤتمر ولم يحقق فى عالم السياسة أكثر مما حققت كل الموالد السياسية من قبله . . حيث أقنع المثقفون أنفسهم بعدالة قضيتهم وفساد حكامهم وأنهم — وهذا هو المهم — أدوا واجبهم واستراحت ضمائرهم . . إلى أن يلتقوا فى مولد جديد .

ولكن كلمات تلميذ مالك وجدت طريقها فى نفوسنا وأتت أكلها في ندوات وأحاديث هنا وهناك وأحببنا أن نطرح مجموعة الأفكار التى تمخضت عنها أحاديثنا الخاصة فى مجموعة دراسات تتعلق بمشكلات نهضتنا . . بادئين باذن الله بحديث عن التحدى الحضارى الذى يواجه أمتنا .

ولا نزعم أن ما تخطه أيدينا هو رأس الحكمة وفصل الخطاب وإنما هي محاولات نرجو من ورائها مخلصين أن يتخلص الفكر

العربى خاصة والإسلامى عامة من قابلية التجزئة والتذرير[1] ليصل إلى وحدة الوجهة . . التى يصر عليها دينه فى كل صلاة .

---

(١) أن لفظة التذرير التى استخدمناها فى هذا السياق قد سبقنا لاستخدامها أستاذنا مالك بن نبي غير أنه استعملها فى وصف الفكر العربى بأنه فكر يقف عند الجزئيات وتنقصه النظرة الشمولية ولعله كان يعنى الفرق بين النظرة الميكروسكوبية والنظرة الماكروسكوبية . فى الأولى ينظر الباحث فى الذرة والجزئ بينما فى الثانية يتجاوز هذه النظرة الدقيقة الى نظرة فى الصفات العامة الظاهرة والتى يمكن قياسها بالطرق العادية أو كل ينظر الى المادة على أنها كيان متصل لا فراغات فيه .

ولكننا لم نقصد هذا كله فى استخدامنا للفظة التذرير . اننا نلاحظ أن الفكر العربي الذى تتجمع حوله جموع الشباب فى الهيئات والأحزاب هو مجموعة شعارات قليلة أو كثيرة . ومن شأن هذا النوع من الفكر أن يفرق أتباعه عند أية معضلة فى التفسير تقابلهم . فما دامت بنا يسع الفكر الذى أدى الى الشعارات مجهولة عند الأتباع يصبح هذا الفكر الممثل فى مجموعة الشعارات المطروحة فكراً قابلا للتجزيء بل للتذرير . ونحن قد أسمينا هذا فكراً لأن الناس يسمونه كذلك ولو أنصفوا لأسموه باسمه الحقيق ولقالوا مثلا : الشعارات الاسلامية ـ الشعارات الماركسية . . وهكذا .

الفصل الأول

ديناميكية التحدى

نحن لا نملك اليوم حضارة . . إنما نعيش فى أطلال حضارة أقامها أجدادنا .

ولسنا نملك كذلك روح المسلم الأول الذى كان يملك القوة السياسية فمضى يغرس قيمه فى كل حضارات عصره لتتوحد عقيدتها ومن ثم تتوحد وجهتها . . تماما كما فعل الدين الجديد مع الإنسان حيث أعطاه نقاء العقيدة ووحدة الوجهة .

ولا نملك فهما واحداً لجوهر التحدي[1] الذى يواجهنا فى محاولاتنا الوصول إلى حضارة إسلامية معاصرة . . وهذه من كبرى مشاكلنا الذاتية .

ومشاكلنا ليست كلها ذاتية فأمامنا مشكلة الاستعمار وما أمدته

---

(١) لسنا نعنى بلفظة التحدى أية نظرية سابقة وانما نعنى بالتحديد ماسوف نتحدث عنه من عناصر التحدى الأربعة .

الحضارة المعاصرة من أسباب القوة ومن أساليب غاية فى الدقة والإحكام . . متخفية حيناً ومستعلنة أحياناً .

باختصار شديد : أننا في سعينا لبناء حضارة جديدة نواجه تحدياً مقيداً ومشروطاً . . مقيداً بقيود ذاتية من ناحية أولى وبقيود خارجية من ناحية ثانية ومشروطاً بشروط موضوعية من جهة ثالثة .

ونحن فى هذه الورقات سوف نحاول أن نلقى الضوء علي ما أسميناه بالقيود الذاتية والشروط الموضوعية للتحدى الحضارى ولن نتعرض لما أسميناه بالقيود الخارجية المتمثلة فى الاستعمار إلا فى حدود ما يهم بحثنا المتعلق بالقيود الذاتية والشروط الموضوعية .

وقبل أن نخوض فى حديث عن قيود التحدى وشروطه لابد أن نحدد جوهر التحدى ذاته والذى يتمثل فى العناصر الآتية :

* القدرة علي شحذ الفعالية الروحية للأمة .

* القدرة علي استيعاب علوم الغرب وتكنولوجياته استيعاباً كاملا .

* القدرة علي تبنى نظم الحضارة المعاصرة أو إبداع البدائل .

* القدرة علي حماية المنجزات الحضارية للأمة .

القدرة على شحذ الفعالية الروحية للامة :

في مجال شحذ الفعالية الروحية للأمة ليس من الضروري أن تتطابق الأشواق الروحية لكل الفئات التى تكون الأمة وإنما يكفي أن تلتقي كل الأشواق على قدر مشترك يحقق للجميع انطلاقة حضارية واحدة .

وليس من الضروري كذلك أن تتطابق مناهج الإعداد الروحي لدى فئات الأمة المختلفة مادامت هذه المناهج قادرة على شحذ الأشواق المشتركة عند الجميع .

ورغم الأهمية القصوى لشحذ الفعالية الروحية في مرحلة الإقلاع الحضاري فان الحاجة لهذه المهمة تظل قائمة لاستمرار الحضارة .... حيث تمدها الحضارة بوسائل جديدة تواكب بها مقتضيات العصر... وعندما تنسى الأمة هذه المهمة في أية مرحلة تبدأ مشاكلها مع محاولة البقاء . حتى في مرحلة الانحطاط من الرغبة في المحافظة على مجرد البقـــاء .

وطبيعة الأشواق تحدد طبيعة الحضارة . . فاذا تعلقت الأشواق بالجانب المادي للانسان فحسب أنتجت حضارة مادية وإذا ماتعلقت بجوانبه الروحية والمادية معا أنتجت حضارة انسانية .

وأشواق الأمة يجب أن تكون واقعية . . حتى لايصاب الإنسان باليأس عندما لايستطيع لها تحقيقاً . . واليأس هو أول الطريق للبعثرة النفسية للأمة وهو أخطر مرض في مرحلة الإقلاع.

وعملية بث الأشواق فى روح الإنسان مشيد الحضارات عملية هامة تحتاج إلى علم بها وصبر عليها ورعاية لها . ولاضير هنا من تعدد طرق بث الأشواق .

وإنما المهم أن نجد توجيه الطاقة الروحية المبثوثة فى اتجاه واحد أو بوتقة واحدة تمثل المصلحة القومية المشتركة .

وهنا يبرز سؤال :

من الذى يقوم بمهمة شحذ الفعالية الروحية للأمة ؟

من المؤكد أنها ليست مهمة السياسى.. فهذا رجل مشغول بصيانة منجزات الحضارة الجزئية ... سواء كان فى الحكم أو خارجه وهي ليست كذلك مهمة حفظة التراث ... فهؤلاء مشغولون بتنظيم الكتب فى رفوف رؤوسهم . كما أنها ليست مهمة هؤلاء المهنيين المنشغلين بدقائق مهنتهم المنصرفين إليها بكلياتهم .

من الذى يقوم بهذه المهمة إذن ؟ . . .

إنها لحسب مهمة النفر القدوة . . . حيث تترجم رسالة ما إلى تصور ذهنى وسلوك عقيدي يضيء بالقدوة أكثر مما يضيء بالفلسفة ويجمع حوله القلوب والأفئدة فتنساب فى سلوك جماعي موحد تحسه فى تصرف البسطاء من الناس كما تراه فى تصرف علمائهم .

إن الحضارة فى مرحلة النضج سوف ترث كل تصورات وأخلاقيات هؤلاء النفر القدوة الذين وضعوا بذورها ... كما ورث

المجتمع المسلم القيم والأخلاقيات الإسلامية التى تجسدت فى شخص الرسول العظيم محمد صلوات الله وسلامه عليه وجيل الصحابة من حوله ... أو كما قيل عنهم : كانوا قرآناً يمشى على الأرض .

أو كما وصفت عائشة رضى الله عنها سيدنا رسول الله ﷺ : كان خلقه القرآن .

كما أن طبيعة الرسالة سوف تحدد معالم الحضارة وتطبعها بطابعها ولسنا ننفى احتمال تغيير مسار حضارة من الوجهة النفسية حتى بعد بلوغ مرحلة النمو حيث يبرز هنا دور المصلحين الذين يظهرون من وقت لآخر ويرون بعين حضارية الانحرافات الظاهرة والخفية فيحاولون تصحيح المسار ، وربما يتعلق بهذا حديث رسول الله ﷺ : « يخرج على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها » .

وتصبح مهمة هؤلاء المصلحين فى منتهى الصعوبة فى أمة وصلت إلى درجة عالية من القوة المادية والرخاء المادى ... إلا أن يتوفر استعداد نفسى خاص لدى الأمة كما يحدث فى أعقاب هزيمة بالغة أو زلزال حضارى . .

وفى هذه الأحوال ربما يجد المصلح طريقه سهلا لتصحيح مسار أمته الحضارى .

والجماعات الحضارية التى يؤسسها النفر القدوة لابد أن تفرغ

لمهمة شحذ الفعالية الروحية وإثارة الوعى الحضارى عند المؤسسة الأولى للحضارة ألا وهي الإنسان المستعد للتلقى والإبداع الحضاريين فيما بعد .

واللبنة الأولى فى أي منهج لإثارة الوعى الحضارى متمثل فى التصور النظرى والسلوك العقيدى المنبثقين عن الرسالة التى آمن بها النفر القدوة .

وإن إثارة الوعى الحضارى بين جماهير الأمة لايحتاج إلى تنظيم هذه الجماهير فى طوابير حزبية تقف متأهبة فى انتظار أعمال سياسية ... وسرعان ماتصطدم هذه الجماعات وجماهيرها بالنظم السياسية القائمة التى تكتشف القوة السياسية لهذه الجماعات فتحاول تطويعها أو البطش بها حيث تضيع على الأمة كنوز من الشباب.. ويضيع كذلك وقت ثمين كان يمكن أن يوجه للتنمية القومية .

وتضيع أيضاً ثقة عزيزة وتراحم وتآلف . . . وتبدأ عملية البعثرة النفسية ... وهكذا لاتعود الأمة فقط إلى نقطة الصفر بل تعود إلى ما قبل الصفر ... وتصبح المهمة الجديدة مضاعفة .

إنها ليست جريمة السياسى فحسب وإنما هى كذلك جريمة مفكرى الجماعات الراغبة فى الانطلاق الحضارى .

وفى ختام حديثنا عن شحذ الفعالية الروحية للأمة نسجل ملاحظتين :

الأولى : أننا استخدمنا لفظة الفعالية لنؤكد بها أن المطلوب ليس هو الروحية المخدرة التي تعزل الإنسان متقوقعاً على نفسه بعيداً عن مجتمعه وإنما هي الروحية الفعالة التي تجعل كل أشواقه متعلقة ببناء المجتمع .

والثانية : إن وجود جماعة حضارية لاتعني وجود حضارة .. وإنما يعني وجود جنين للحضارة .. وإن سلوك رجال هذه الجماعات الحضارية سيظل نبراساً لكل الأجيال الحضارية التي تأتي من بعدهم .. وقدوة تعرف ولا تكاد تدرك .

القدرة على استيعاب علوم الغرب وتكنولوجياته استيعابا كاملا :

إن حضارة الغرب التي تبدو في غاية التعقيد قامت على أساس العلم ، ومدخلنا إليها لن يكون إلا عن طريق شحذ الفعالية العلمية للأمة وسبيلنا إلى شحذ الفعالية العلمية هو جهازنا التعليمي المتطور .

ولقد أمضى الغرب زهاء خمسة قرون ليبني قلاعـــه العلمية والتكنولوجية وكان لكل فرع من فروع العلم والتكنولوجيا مسيرة معينة تتميز بفترات التكدس ثم لخبائيات الابداع . ونضرب مثلا بفرع من فروع المعرفة وهو علم الميكانيكا . في عصر ما قبل العالم كبلر كان علم الميكانيكا هو مجموعة معلومات مكدسة عن حركة النجوم والكواكب لايستبين الإنسان قوانينها الحاكمة حتى جاء هذا العالم الفذ كبلر واستخرج منها قوانينه الثلاثة المشهورة .

واستغنت الإنسانية على يد هذا العالم عن الركام الضخم من المعلومات واستبدلت به ثلاثة قوانين لا تشغل أكثر من نصف صفحة وفى الفترة ما بين كبلر ونيوتن كان علم الميكانيكا يزداد بطريقة تكدسية .. معلومات متفرقة عن أشياء متفرقة .. لا يبدو واضحاً ما يحكمها من قوانين . حتى كان اسحاق نيوتن فأحدث باكتشافه لقوانين الحركة الثلاث فجائية إبداعية كانت من بين الأسس العظيمة التى بنى الإنسان عليها حضارته العلمية والتكنولوجية . إن قوانين نيوتن الثلاثة لا تصف حركة الكواكب والأقمار فى مساراتها فحسب وإنما تصف ديناميكية التحرك لكل الأجسام تحت تأثير أى نوع من القوى . بينما كانت قوانين كبلر الثلاثة تختص بمسار جسم تحت تأثير قوة جذب مركزية .

واستمر علم الميكانيكا بعد ذلك فى حالة تراكم تكديسى دونما طفرة حتى جاء العالم أينشتاين نعمم قوانين نيوتن فى طفرة إبداعية حيث أصبحت قوانين أينشتاين قادرة على وصف حركة الأجسام جميعاً بينما كانت قوانين نيوتن تقف حاسرة عن وصف حركة الأجسام الدقيقة ذات السرعات العالية التى تقترب من سرعة الضوء .

ومنذ أن نشر أينشتاين بحثه عن النظرية النسبية الخاصة فى عام ١٩٠٥م وحتى الآن يتزايد علم الميكانيكا تزايداً تكديسياً .

وما أوتى الإنسان من العلم إلا قليلا . . . فما زلنا ننتظر

فجائيات ابداعيـة تحـدث نقلة أساسيـة فى مستوى العـلوم والتكنولوجيا .

والسؤال الآن : أمة كأمتنا تقف عند أبواب القلاع العلمية والتكولوجية لحضارة الغرب ... كيف تستطيع هذه الأمة أن تستوعب علوم الغرب وتكنولوجياته ؟ . . هل هناك جدولة زمنية مثلي لتتابـع إدخال علوم وتكنولوجيات ... إذا استوعبت مرحلة بدأنا بمرحلة ثانية .. وهكذا ؟ .

النظرية التى نؤمن بها هي أن المسار التاريخى لتطور العلوم والتكنولوجيا لا بد أن يؤخذ فى الإعتبار تماما عند محاولة تدريب المجتمع الناشىء علميا وتكنولوجيا . إن الأمة الجادة يمكنها أن تختصر ٤٠٠ عام من تاريخ التطور العلمى والتكنولوجى للعالم الغربى إلى ٤٠ عاما أو أقل ولكنها لايمكنها أن تستسيغ الحضارة دفعة واحدة مهما أوتيت من مال .

إن التكنولوجيا الحديثة نشأت من تزاوج العلم والحرفية وإصرار المجتمع على هـذا التزاوج فى صـورة مراكز تطوير الصناعات المختلفة .

ولذلك فنقطة البدء هي تعليم الحرف وانتشارها بين الأغلبية الساحقة من أبناء المجتمع ... بينما يتوجه قسم للتعليم الفنى ليكون قادراً على تطوير الحرفية وإنمائها .. وينفر فى نفس الوقت عدد من

ذوى العقول النادرة لتتبع العلوم والنظر فى إمــــكانية خدمتها للتكنولوجيا المستحدثة . وإن توجيه الأغلبية الساحقة لتعلم الحرف يجب أن يبدأ مبكراً فى المدارس الإبتدائية والإعدادية والثانوية حيث يجب أن يعاد النظر كاملا فى أهداف تعليمنا ما قبل الجامعى وما يحقق هذه الأهداف من مناهج مختلفة .

فعلى سبيل المثال إذا أرادت دولة كمصر أن توجه ٨٠٪ من أبنائها لأعمال حرفية و١٠٪ لأعمال فنية و٥٪ للعلوم والآداب والبحوث و٥٪ لشحذ الفعالية الإجتماعية للأمة فانه من الواضح جداً أن برامج التعليم الحالية لابد من تغييرها تغييرا جذريا حتى نقترب من هذه الغاية المرجوة .

وإذا أردنا الإستفادة من الغرب فى هذه المجالات فلابد أن نعى أن المجتمع خارج الأسوار التعليمية التقليدية يشارك مشاركة فعالة فى التدريب والتعليم وهو أمر مفقود فى بلادنا .

إن واحدا من أرباب التكنولوجيا الحديثة لن يسمح بتعليمها لآخر . هذا هو الواقع فى عالمنا المعاصر ... وإنه لن يمكننا الحصول على دقائق التكنولوجيا المعاصرة حتى لو دفعنا من أجلها المال الوفير . وإن طريقنا إليها لابد أن يمر بمراحل علمية مختلفة تشبه التطور الزمنى فى بلاد الغرب .

إننا لا يمكن مثلا أن نصنع سيارة من غير أن نتعلم كيف نصنع ترسا من تروس نقل الحركة . إن الكتب العلمية لتمتلىء بالمعلومات النظرية عن كيفية صناعة ترس . وهنا يجىء دور المهندس فى تحويل هذه المعلومات إلى روتين يقوم الفنى بتبسيطه للعامل ثم تنشأ مشاكل فى التصنيع يرفعها المهندس لمجموعة التطوير من المهندسين ومجموعات الباحثين من العلماء وتبدأ محاولات وتجارب وتصل مجموعة التطوير إلى حلول علمية لمادة الترس ومعالجتها الحرارية وطرائق تصنيعها . . ويترجم المهندس ذلك كله إلى خطوات واضحة للفنى يتولاها بعد ذلك مع العمال .

أننا نصنع تروسا فى بعض البلاد العربية ولكن الشكوى منها دائما أن المعاملة الحرارية لسطوحها رديئة جداً إذا قورنت بالتروس الأوروبية . . أى أن هناك دقائق فى الصناعة الأوربية لا يمكن أن نحصل عليها إلا إذا وفقنا إليها عن طريق العلم والتجربة .

لقد أخذت الحضارة الغربية ٤٠٠ عام لتصل بتروسها إلى حالتها الحالية وحققت ذلك من خلال الإصرار على تزاوج العلم والحرفية وإننا يمكن أن نختصر هذه الأربعمائة عام إلى أربعين عاما أو أقل شريطة أن نلتزم بتزاوج العلم والتكنولوجيا زواج تأبيد وأن نتبصر بالتتابع الزمنى فى عملية تدريب الأمـة على الحرف والتكنولوجيات المختلفة .

وإنه لمكننا أن نسقط عمر الحضارة الغربية المعاصرة على عمر الإنسان في أمتنا فنبدأ معه منذ الطفولة نعلمه كيف تنتقل الحركة بالتروس والسيور وكيف نصل الأشياء بعضها ببعض ... أي نعلمه نظرية الآلات — مبسطة حسب إدراكه وسنه . . متطورين معه كما تطورت الحضارة في طريقها الطويل . . وإن هذا ليستدعي جهداً مضاعفاً في بناء أجهزة تعني بهذا النوع من التعليم الجماهيري .

إن العلم هو الذي يصنع من أبجديات الحرف كلاما مفهوما نسميه تكنولوجيا ويظهر فيما بعد أدباء يصنعون أدبا يختلط فيه العلم والذوق والفن فيكون مميز الحضارة بعينها .

ونؤكد هنا عدة ملاحظات حول عملية الاستيعاب .

أن لا يسبق العلم الحالة التكنولوجية كثيرا فيؤدي ذلك إلى انفصاله عنها ويصبح ذلك كارثة على العلم وكارثة على التكنولوجيا ذلك ماحدث ومازال يحدث في مصر .

ولا يمنع ذلك وجود قلة في الجامعات ومراكز البحوث تعمل عند مشارف العلوم مهمتها بالنسبة لمجتمع نام هو التطوير المستمر للعلوم لتصبح أكثر ملاءمة لتحقيق الهدف التكنولوجي .

أن تتضح الغايات الإجتماعية من التعليم بصورة مركزة . . . حيث يجب أن نسأل أنفسنا دائما : أي نوع من التدريب والتعليم ينتج

إنسانا صالحاً لهذه الوظيفة الاجتماعية ! . . ونقلع عن السؤال : أى وظيفة اجتماعية تصلح لهذا الخريج ؟

فاجابة السؤال الأول تربط الغاية من التعليم بمناهجه ، أى أنها تضع شروطاً واضحة له ، فاذا كانت المهمة الاجتماعية مثلا هي شحذ الفعالية الروحية للانسان حتى يصبح على أهبة الاستعداد الحضاري لأمته . . وظهر لنا من النظر الثاقب فى هـذه المهمة أنها ذات عناصر مختلفة من عقائد وأخلاق وتاريخ ودراسات ميدانية معاصرة .. وظهر لنا كذلك أن مناهج مختلفة يجب أن تضطلع بها جهات مختلفة سواء فى دور التعليم الرسمية أو فى أماكن العبادة أو فى وسائل الإعلام المختلفة . . إذا تحدد هـذا كله بشكل واضح فانه سوف يحدد أيضاً بوضوح مناهج الإعـــداد للذين سيضطلعون بهذه المهمة فى مجتمعاتنا . .

ولو أخذنا بمبدأ الوظيفة الاجتماعية أولا ثم الإعداد لها ثانياً لمـا حدث هذا الإنفصام والتناقض فى مهمة الواعظ الدينى الاجتماعية والتى بدأت تفقد كثيراً من جدواها فى مجتمعاتنا الحديثة حيث أصبحت مهمة الباحث الإجتماعى تأخذ مكانها رويداً رويداً .

إننا إنما نعنى بالاستيعاب الـكامل للحضارة المعاصرة استيعاب الأصول والطرائق ، أما الدقائق فهذه لا يمكن لأصحاب الحضارة منحها وإنما تدرك بالممارسة الواعية والتفاعل البناء .

القدرة على تبنى نظم الحضارة المعاصرة أو إبداع البدائل :

مع التطور المستمر والنمو المضطرد لمؤسسات الحضارة الإقتصادية والاجتماعية والسياسية تطورت ونمت النظم المهيمنة على هذه المؤسسات منطلقة من المبادىء والأخلاقيات التي شحذت الفعاليـة الروحية لأصحاب هذه الحضارة فى مرحلة الإنطلاق ومعدلة نفسها مع تغير المفـاهيم والأخلاقيات فى مجتمعات ترى جوهر الأخلاق متغيراً غير ثابت .

والمشكلة التى تواجهنا ونحن نتأهب لدورة حضارية جديدة أننا نريد أن نبنى مؤسسات حضارية شبيهة بأختها فى ديار الغرب ولكنها تقوم على نظم تنطلق من مبادىء وأخلاقيات غير متطابقة مع المبادىء والأخلاقيات التى انطلقت منها حضارة الغرب .

ومحنتنا إننا لا نعرف أننا لا نملك النظم الحاكمة للمؤسسات المطلوبة ، فكثير منا يتصور أن الكتاب والسنة قد اشتملت على كل النظم الحضـــارية المطلوبة ، وكأن لسان حالنا يقول : قلب فى الصفحات تجدها .

والحق الذى نؤمن به أن الكتاب والسنة قد اشتملا على كل المبادىء والأخلاقيات الكافية واللازمة لانبثاق نظم حضارية . . ولكن النظم الحضارية نفسها هي محاولات بشرية تنطلق متحررة من كل القيود إلا القيود الأخلاقية والمبـادىء الأساسية التى يحددها

الكتاب والسنة والتي نؤمن بأنها خير أساس لقيام حضارة إنسانية ليس كثلها حضارة .

ومحنتنا أيضاً أننا لا ندرك أن النظم لا تولد فتية متكاملة إنما تبدأ طفلة وتتمومع التجربة والمحاولة والخطأ .. لا يحكمها إلا محاولتنا الدائمة أن نجعلها لا تميل ولا تحيد عن مبادئنا وأخلاقياتنا .. فان حادت أو مالت لا بد أن نعيدها عن طريق نظام دائم للتقويم الحضاري .

فان استبان لنا أننا لا نملك النظم الحاكمة للمؤسسات الحضارية المرجوة أصبح واضحاً أمامنا خياران :

الخيار الأول : أن نتبنى المؤسسات الحضارية الغربية بوضعها الحالى آخذين فى الاعتبار أن نظمها الحاكمة تحتاج إلى تعديل وتبديل يأتى عن طريق الممارسة والتجربة والإصرار على تحقيق المبادىء والأخلاقيات الخاصة بنا فى النظم المعدلة .

والخيار الثانى : أن نبدع البدائل . . وهذا أمر لا يفتى فيه غير متخصص فى أعمال مثل هذه المؤسسات .

وإحدى مشاكلنا أننا نضع عبء إبداع البدائل على المتخصصين منا فى علوم التراث الإسلامي من فقه ولغة وسير وتفسير ومنطق وفلسفة .. وإن هذا لظلم عظيم .

فمهمة إبداع البدائل لا بد أن يضطلع بها متخصص فى دراسات النظم التى تحكم مؤسسات شبيهة بالمؤسسات المرجوه كما أسلفنا . . ونظن أن هذا ما عناه استاذنا مالك بن بنى فى مقدمة كتابه « المسلم فى عالم الاقتصاد » حيث يقول: ولا نختم هذه المقدمة دون أن نقول كلمة بصدد الحوار الذى نشأ فى العالم الإســـلامى حيث نرى المتخصصين بالاقتصــاد يوجهون العتاب أو اللوم إلى الفقهاء ويرمونهم أحياناً بالجمود .

يجب أن ننزه فقهاءنا عن هذا العتاب ، ونقول : أنه ليس من اختصاصهم أن يدلوا على الحلول الاقتصادية سواء فى القرآن أو السنة أو غير ذلك وإنما اختصاصهم أن يقولوا فى شأن الحلول التى يقدمها أهل الاختصاص الاقتصاديين ، هل هي تطابق أو لا تطابق الشريعة الإسلامية ».

رحم الله أستاذنا مالك بن نبي . . كأنما أراد بحديثه هذا عن دور فقهائنا أن يكون دورهم دور العين السحرية فى نهاية خط الانتاج.. أى دور التحكم في النوعية . . النوعية التى تحكم المبادىء والأخلاق والأحكام الإسلامية . . فما وافقها من النظم مضى .. وما خالفها يعاد لأهل الاختصاص للتغيير والتبديل .

ونحب أن نؤكد أمرين هامين :

الامر الاول : أنه ينبغى أن يكون المتخصصون فى كل مجال

على قدر معقول من الثقافة الإسلامية حتى يستطيعوا ابداع البدائل الإسلامية أو تعديل ما يتبينونه من نظم وفق المبادىء الإسلامية وإلا كانوا عاجزين تماماً عن هذا أو ذاك .

الامر الثانى : أن البدائل المقترحة هي من قبيل المحاولة الإسلامية وليست هي الإسلام ، لأننا من خلال التجربة قد نكشف تقصير النظم المقترحة فى تحقيق كل جوانب مبادئنا وأخلاقياتنا فناجأ إلى تغييرها أو إصلاحها حتى تكون أكثر تحقيقاً لأخلاقياتنا ومبادئنا.. إن الصراط المستقيم في مثل هذه الأمور ليس واضحاً من غير هداية الله .. وهداية الله لا تأتى إلا بالمجاهدة المستمرة .. فنحن ندعو في كل صلاة : اهدنا الصراط المستقيم .. وربنا يقول: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .

باختصار شديد أمامنا طريقان :

طريق التبنى لنظم غربية مع العزم على تغييرها مع الزمن والتجربة لتوافق مبادئنا وأخلاقياتنا أو إبداع بدائل لهذه النظم آخذين فى الاعتبار أن هـــذه البدائل ليست الصراط المستقيم وإنما هي محاولة للقرب منه وأنه عندما يثبت من الممارسة أن هذه البدائل أوقعتنا فى تناقض فى مبادئنا وأخلاقياتنا نصبح ملزمين حينئذ بتبديلها وتغييرها غير متحجرين ولا متبلدين .. لا يحكمنا فى الأمر كله غير قرآن ربنا وسنة نبينا .

القدرة على حماية المنجزات الحضارية للأمة :

للحماية هنا شقان : شق ذاتى وشق خارجى، فالشق الذاتى مطلوب لحماية المنجزات الحضارية من الأمراض الحضارية التى تصيب الحضارات عندما يصاب المجتمع بالغفلة والوهن ويركن للترف والدعة . وينسى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتحيط به ملذاته وأهوائه وتصدأ نفسه فيفقد المعنى الحق لجهاده وسبب وجوده .

إن المجتمع لابد أن يعدل دوما فى نظمه فى إطار مبادئه وقيمه، وفى إطار الوقاية من الأمراض الحضارية .. فلا يسمح نظامه الاقتصادى مثلا أن يصبح هناك إنسان مترف وبجواره إنسان مسحوق .. أو يسمح نظامه السياسى أن يصبح الفرد آلة صماء لا رأى له ولا مشورة .. أو يكون النظام الاجتماعى بحيث تنتفى روح الأخوة وروح الأسرة .

أى يجب أن تكون نظم الحضارة نظماً فعالة .. تعمل على الوقاية الدائمة لنفسها ضد الأمراض التى قد تصيبها من داخلها .

وفى إطار الشق الذاتى يأتى أيضاً القدرة على الإكتفاء الذاتى من عدم الاعتماد على الامتداد الخارجى فى فترات الصراع العالمى ومحاصرة الحضارة .

ويستلزم ذلك سعة سكانية وإقتصادية هائلة :

أما الشق الخارجى فيتعلق بالقـدرة على بنـاء أجهزة دفاع قوية تذود عن حمى كل المنجزات الحضـارية أمام أي غزو عليها -سواء كان ذلك غزواً عسـكرياً أو اجتماعياً أو نفسياً .

الفصل الثانى

قيود التحدى

ذكرنا فى الفصل الأول أننا نواجه فى سعينا لإقامة حضارة تحديا مقيدا ومشروطا .

وذكرنا كذلك أننا نواجه صنفين من القيود :

قيود خارجية

قيود ذاتيـة

فى هذا الفصل نحلل القيود الذاتية .

القيود الذاتية :

— قيود فكرية .

— قيود تنظيمية .

— قيود اجتماعية .

— قيود سياسية .

قيود فكرية :

حالة الأمة الفكرية عند مرحلة ما فى تاريخها هو خليط من فكر نافع وفكر لا ينفع وفكر مدمر .

وإذا كانت هذه النقطة فى تاريخها هي نقطة البدء فى دورة جديدة من حضارتها يصبح القيد الفكرى هاماً لأنه ربما كان مدمرا لكل جهد يبذل من أجل اقامة الحضارة .

وحالة الأمة الفكرية تتكون من تراث منقول عبر الأجيال وفكر يتسرب من الحضارات المحيطة وفكر هو نتاج جيلها المعاصر .

والفكر الذاتى هو هـــذا البناء العقلى الذى ينمو عن مجموعة الأساسيات التى تمثل عقيدة الأمة . والتى تستقر فى وجدانها عن طريق رسالات سماوية خلت أو عن طريق رجال أوتوا الحكمة فطرة وإلهاما وتطور هذا الفكر الذاتى يتعرض فى مساره التاريخى لمراحل صعود ومراحل ثبات ومراحل انحطاط . وعندما تبدأ أمة فى محاولة إقامة حضارة فى أعقاب دورة حضارية تجد نفسها أمام تراث فكرى قد تخلف لديها من أيام الصعود والثبات والإنحطاط مضافا إلى هذا الفكر المتسرب من الحضارات المعاصرة المحيطة بها . وهنا تبدأ فى الأمة معارك وصراعات بين ألوان الفكر المختلفة . . الفكر المتسرب من الحضارات المعاصرة قد تمثل فى أنظمة متقدمة عصرية حية بينما فكر التراث قد تمثل فى أنظمة فى الماضى أصبحت

تاريخا وآثارا .. وكلاهما بالنسبة للأمة لا يمثل الذاتية .. الأول يمثل تغايرا فى المكان والثانى يمثل تغايرا فى الزمان .

إن الحيرة الفكرية هي أعضل مرض يصيب الأمة فى مرحلة الإقلاع الحضارى وخاصة عندما لا يكون لهذه الحيرة عمق علمى بل يكون الأمر كله بين شعارات مختلفة تبدو متناقضة متنافرة .

إنه لا يمكن أن نصر علي تطابق الأفكار فى الأمة تطابقا تاما . ذلك قيد لا يمكن تحقيقه .. فالتجانس الفكرى فى الأمة لا يتطلب تطابق الأفكار تماماً وإنما يتطلب وجود أرضية مشتركة تلتقى فيها الأطراف على قدر يحقق المصلحة الحضارية من خلال العمل المشترك.

ونتبه هنا إلى عدة ملاحظات :

• إن صلاحية النظم التى تمثل الأفكار فى بلد ما فى وقت ما لا يعنى بالضرورة أن هذه الأفكار صالحة لإيجاد نظم شبيهة فى بلد آخر.. أو في نفس البلد فى وقت آخر.. إن التغاير الزمانى والمكانى يمثلان تغايرا فى الساحة النفسية والاجتماعية والاقتصادية للأمة .

• إننا يجب أن لا نخلط بين العقائد السماوية وبين عالم الأفكار الذي انبثق عنها .. والعقائد فى جملتها إيمانية وهي تمثل الأسس التى قام عليها عالم الأفكار .. والطرائق التى انبثق بها عالم الأفكار من العقيدة طرائق عقلية وليست إيمانية . . ومن هنا ينبغى أن نتحفظ فى دفاعنا عن عالم الأفكار .. فهو يعتمد الإجتهاد فى طرائق انبثاقه من العقيدة .. وكل اجتهاد يحتمل الصواب والخطأ .

* إن صحة عملية الإنبثاق الفكرى من مجموعة عقائدنا سوف تختبر من خلال صلاحية الأخلاق والأفكار المنبثقة ذاتها .. وإن صلاحية الأخلاق والأفكار سوف تختبر من خلال النظم الصادرة عنها .. أى أننا فى النهاية نحتكم إلى صلاحية النظم والمؤسسات لمعرفة مدى صلاحية أفكارنا وفعالية أخلاقياتنا ومن ورائهما مدى صحة طريقتنا في الإنبثاق الفكري عن مجموعة العقائد المهيمنة على قلوبنا .

قيود تنظيمية :

فى المجتمعات الراكدة الساكنة والتى تنقصها العقيدة الموحية للتفاعل مع الزمن والتراب لإبداع حضارة تنمو فوق مسارها التاريخى .. فى مثل هـذه المجتمعات لا يرث الناس الأفكار فحسب وإنما يرثون النظم أو كما يصفهم القرآن العظيم :

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا .. أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون »

(سورة البقرة آية ١٧٠)

ذلك أننا نؤمن أن الأفكار يجب أن لا تورث مع الأرض والعقار وإنما هي مهمة كل جيل أن يبصر لنفسه .. فلن نقبل على الله يوم القيامة جماعات وأمماً وإنما سنقبل أفراداً : « وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » وكذلك فيعالم النظم التي هي وليدة عالم الأفكار ..

فلا يمكن لفكرنا أن يتحرر من الأطر الجامدة التى حجرت فكر الآباء فى عصور الانحطاط ، وتبقى نظمنا كما كانت نظم آبائنا .. فديناميكية الأفكار تستدعى ديناميكية النظم .. وديناميكية النظم تستدعى ديناميكية الأفكار .. فيما نسميه نظام التغذية الذاتى فى علوم نظم التحكم الآلى .. وعندما تبدأ الأفكار تفقد ديناميكيتها تبدأ النظم فى فقدان ديناميكيتها ويؤثر ذلك على الأفكار مرة أخرى فتفقد المزيد من الديناميكية ، وهكذا دواليك لتصل الأمة إلى ما نسميه فترات الانحطاط حيث تتجمد الأفكار والنظم معا .

والآن وعندما تقول الأمة : الله أكبر معلنة نيتها لبعث حضارى ماذا تفعل بالنظم الجامدة التى ورثتها عن الآباء ؟

لا ريب أن أول الطريق هو بعث الديناميكية فى عالم الأفكار..

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وبعث الديناميكية فى عالم الأفكار هو مرآة طبيعية لشحذ الفعالية الروحية للأمة .. فالأفكار — كما أسلفنا — هى البنى العقلية التى تنمو من مجموعة من البديهيات التى تمثل عقيدة الأمة منضبطة من الضوابط الأخلاقية المصاحبة لهذه البديهيات .

وإن الأصل فى ديناميكية الأفكار هو أن كل نظم البشر قديمها وحديثها ينقصها الكمال وليس فيها شىء مقدس ، ومن هنا يتحرك الفكر ليكمل النقص ثم يتحرك الزمن وتتغير الأحوال فيبدو فى النظم

نقص ما كان ليراه الأولون ، حيث كانت تلك النظم محكومة بظروف ، فيتحرك الفكر مرة أخرى لسد النقصان وإقامة العمران .

أما إذا جمد الفكر عند نظم موروثه فقدسها ، فان هذه النظم سوف تصبح قيداً حضاريا يعوق مسيرة الحضارة وتفاعل الإنسان مع البيئة والزمن .

بالطبع فى مرحلة الإنطلاق الأولى يمكن تبنى النظم الموروثة إن كانت ما زالت صالحة كنقطة بدء ـ ولكن آخذين في الاعتبار أنها سوف تتعرض لعمليات تحوير وتبديل وتغيير لنصل بها إلى الكمال أو بعض الكمال المنشود .

وربما كانت بعض هذه النظم لا تصلح حتى كنقطة بدء وكانت عجلة الزمان الدائرة تستدعى وجود نظم تحكم علاقتنا وشئوننا ورأي مفكرونا نظما أجنبية تصلح كنقطة بدء .. فى هذه الأحوال لا مانع من التبنى المبدئى واضعين فى الاعتبار أن هذه النظم أيضاً سوف تتعرض للتغيير والتبديل والتحوير لنصل بها إلى توافق كامل مع حركة أفكارنا المنبثقة من عقائدنا وأخلاقياتنا .

قيود اجتماعية :

هذه مجموعة من القيود التى تقيد بها المجتمعات نفسها من غير أن تمليها عليها عقائد تؤمن بها أو فلسفة تهيمن عليها . هى مجموعة من

القيود توارثتها جيلا عن جيل وربما كانت منابعها عميقة عمق التاريخ غير المكتوب لهذه المجتمعات .

فى مجتمع كالمجتمع المصري مثلا نجد كثيراً من عاداته الاجتماعية تكاد تكون متطابقة عند طوائفه المختلفة .. فلا شك أن الموت ومراسيمه المختلفة واستقباله كظاهرة نفسية أمور قد استقرت كعادات اجتماعية منذ آلاف السنين .. يشترك فيها المسيحى والمسلم مع اختلافات طفيفة نتجت من اختلاف العقيدتين .

ولا يعنينا فى هذا البحث العادات الاجتماعية التى لا تؤثر على قيام الحضارات سلباً أو إيجاباً وإنما يهمنا هذه العادات الاجتماعية التى تمثل قيداً على عملية البعث الحضارى نفسه .

ونضرب مثلا بعلاقاتنا الاجتماعية بالآباء وهى علاقات سائدة فى كثير من مجتمعاتنا الإسلامية ، إن هذه العلاقة تقوم على مفهوم التقليد والمحاكاة المطلقة للاباء وهو تحريف شديد لمفهوم البر بالآباء: مثل هذه العلاقة تؤثر تأثيراً بالغا على القدرة الإبداعية لدى الأبناء وتلقى ظلالا كثيفة على كل سلوكهم فى مجتمعهم الكبير وربما يكون هذا هو المنبع للاستسلامية والقدرية التى تصبغ كثيراً من مجتمعاتنا .

وفى مجتمعاتنا العربية تتخذ علاقاتنا الاجتماعية أشكالا تعوق الضمير الفردى من الإنطلاق وتحده فى إطار الضمير الاجتماعى ولو كان خاطئاً .

ولا يقولن امرؤ أن هذا من الإسلام أو أن ضمير الجماعة ملزم لضمير الفرد فالقرآن ينكر على الإنسان أن ينحرف مع التيار الإجتماعى فمسئولية الانسان مسئولية فردية .. وحسبك أن تقرأ هذه الآيات من محكم التنزيل لنتبين حث القرآن للانسان المسلم أن يعيش بضمير يراقب الله وحده ويخشى الله وحده :

« وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه . ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول . يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين » .

« قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين .. وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا .. وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا .. هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » .

(سورة سبأ الآيات من ٣١ - ٣٣)

قيود سياسية :

عندما تواجه جماعة حضارية قيدا سياسيا متمثلا فى نظام طاغوتى للحكم فانها فى كثير من الأحيان تفقد الوعى بدورها الحضارى . وخاصة عندما تقحم الجماعة الحضارية نفسها فى الأحداث اليومية

وتتخذ فيها مواقف معارضة فتثير بذلك نقمة النظام فيعترض سبيلها ويعوق مسيرتها ويحول بينها وبين المجتمع الذى تريد إصلاحه وبعث الحضارة من خلاله .

وربما بدا لبعض الجماعات الحضارية أن خير وسيلة للبدء الحضاري هو إزالة العائق السياسى فتفكر هذه الجماعات فى وسائل غير حضارية مثل الانقلاب العسكرى الذى لم ينتج عنه فى كل أقطارنا إلا سوء المنقلب .

ويصبح القيد السياسى عظيما عندما يكون سدنته ممن لا يملكون أية رؤية حضارية ولا يشغلهم المستقبل الحضارى البعيد لشعوبهم ومن ثم فلا يرون الحاجة الملحة لمهمة هذه الجماعات الحضارية .

ويبلغ الأمر غاية الرضا عندما يكون للحاكم عمق حضارى فلا تشغله الأحداث الجارية عن الإعداد الحضارى للأمة فيضع إمكانيات الدولة فى خدمة الحضارة المرتقبة .. فتسرع خطى الأمة إلى حضارتها .

ولكن مثل هذه المنحة التاريخية ليست كثيرة فى تاريخ الشعوب والغالب الأعم فى تاريخ الشعوب هو انصراف الحكام إلى مشاكل يومية تستغرق كل همومهم وتستولى على نشاطاتهم .. ولو أخلصوا النية لكان لهم من بين مستشاريهم مستشار واحد للشئون الحضارية يرقب لهم عملية التحول الحضارى وآثار السياسة الجارية عليها

مما يكون له فائدة فى التغييرات العميقة البطيئة التى لا يمكن أن يقوم بها إلا الجماعات الحضارية .

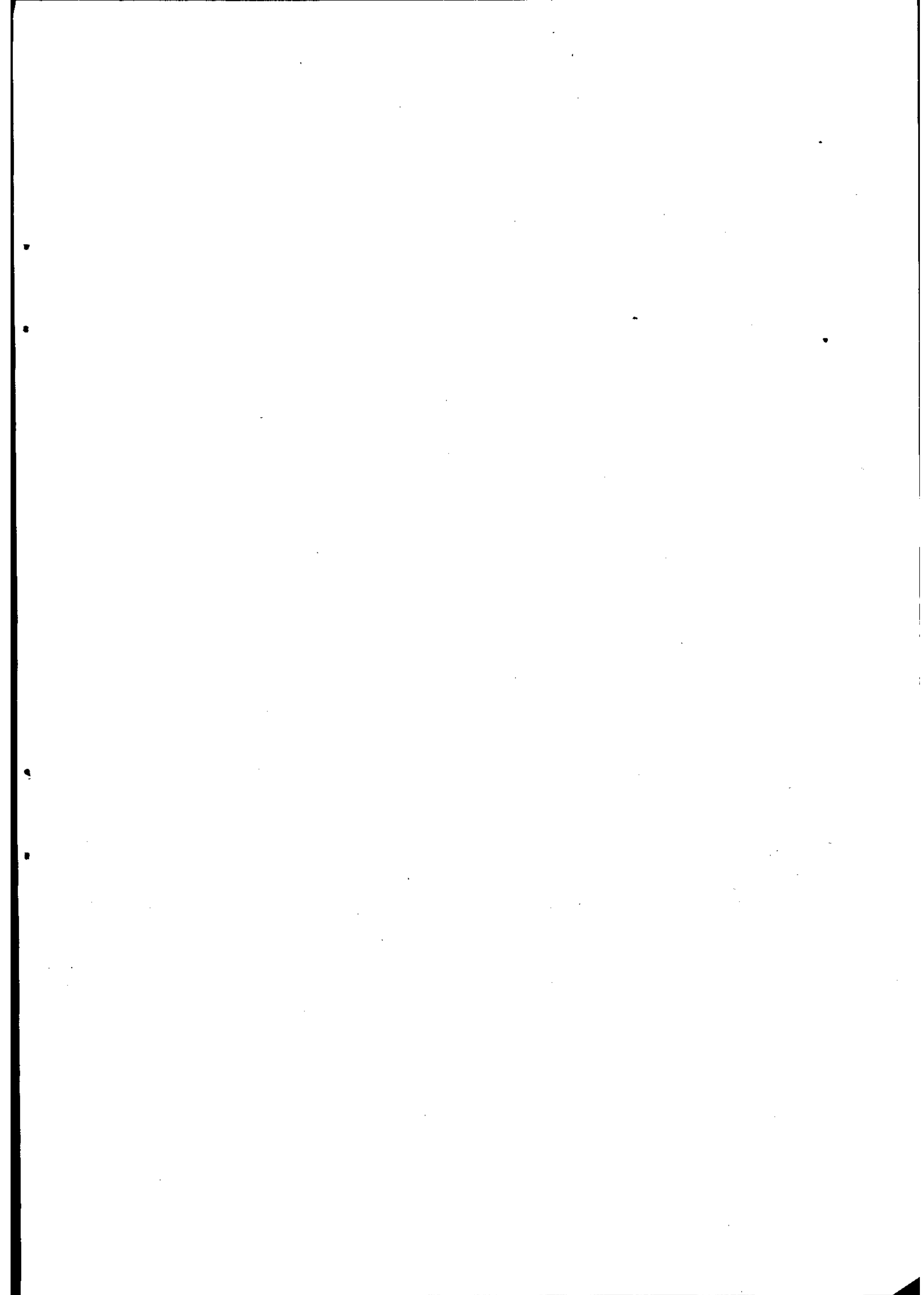
إن المهم المقعد المقيم للسلطة السياسية هو الأثر السياسى التى تحدثه عادة الجماعات الحضارية وكيف ترصده بعيونها وتحيطه بأجهزتها ولا يضيرها أن تجهز على تلك الجماعات إذا استشعرت خطرها عليها غير عابئة بدورها الحضارى ولا مدركة لدورها فى البناء القومى .

والجماعات الحضارية من جهة أخرى قد تستعجل ظهور ثمرات جهادها فى الواجهة السياسية فيدفعها ذلك إلى تكوين قوة سياسية جماهيرية عن طريق تنظيم الجماهير فى طوابير حزبية ثم تنسيها هذه القوة السياسية الدور الحضارى المنوط بها فتنشغل بالسياسة محاولة التغيير العاجل لبعض الصور السياسية حسب تصور غير متكامل للحضارة المرتقبة .

ومن هنا يبدأ القيد السياسى فى إحكام نفسه حول عنق الجماعات الحضارية ويعوق مسيرتها ويحول بينها وبين أهدافها .

ومن هنا أيضاً لابد للجماعات الحضارية أن تتبنى منهجاً حركياً يمكنها من تفادى الصدام مع السلطة السياسية وذلك أولا بالعمل على التغيير العميق البطىء والذى عادة لاترى آثاره السلطة السياسية حتى ولو كانت لاتؤمن به وثانياً أن تتجنب الخوض فى الأعمال السياسية اليومية كجماعات إنما تترك خدمة هذه المجالات لجهود بعض أفرادها .

ولسوف يستدعى ذلك أن تكون الجماعات الحضارية على دراية وعلم بخطوط السياسة العالمية واهتماماتها فى احباط عملية البعث الحضارى فى أمتنا حتى يمكن لهذه الجماعات أن تتفلت من المصايد المنتشرة هنا وهناك والمقصود بها إيقاع الصدام المستمر بين هذه الجماعات والسلطات السياسية . . ذلك أن العلم بهذه السياسات هو أول الطريق لمحاولة التفلت من الحفر المحفورة فى طريق هذه الجماعات الحضارية .



الفصل الثالث

شروط موضوعية

إن مجموعة الشروط التى اصطلحنا على تسميتها بالشروط الموضوعية سوف تحتاج إلى بحوث متصلة من قبل العاملين فى ميدان الحضارة .. وحسبنا نحن فى هذه الورقة أن نطرح الأسئلة الجوهرية التى تحدد طبيعة الشروط وآفاقها ..

إن الشروط الموضوعية تتركز فى ثلاث عناصر :

الشرط العددى

الشرط المكانى

الشرط الزمانى

أولا : الشرط العددى :

فلا يكفى أن تكون الجذوة الحضارية متقدة فى نفوس مجموعة من البشر هم الرعيل الأول للحضارة المرتقبة ولكن لابد أن تكون هناك الكتلة البشرية القادرة على بناء المؤسسات الحضارية فى مستوى مؤسسات العصر التى تميز حضارات أخرى معاصرة وهذا هو العامل الهام الذى يوجب اشتراط الكتلة العددية .

(م ٤ ــ ثغرة)

فالكتلة العددية المثلى سوف تحددها طبيعة العصر ولكنها لا بد أن تقع بين حدين : حد أدنى وحد أقصى فالحد الأدنى تحدده القدرة على إفراز الكوادر الحضارية المختلفة المطلوبة لبناء المؤسسات كما أسلفنا .. والحد الأقصى هو الذى يصل عنده المنحنى الحضارى إلى حالة تشبع ويصبح هناك فائض بشرى لا تستطيع الإدارة الحضارية أن تستوعبه فى عمليات البناء المختلفة فيصبح هذا الفائض حينئذ معوقا حضاريا لا بد أن تنتبه لخطورته أجهزة الحضارة فتعدل من نفسها من أجل استيعابه استيعابا كاملا .

وربما بدا لباحث عجول أن يضرب لنا مثلا بدولة كاسرائيل .. أقامت بنياناً حضارياً بكتلة عددية صغيرة للغاية إذا قورنت بكتلات عددية كالتى تعيش فى الولايات المتحدة الأمريكية أو فى روسيا .. والواقع أن هـذه الدولة هي مجرد معسكر للحضارة الغربية المعاصرة فى العالم العربي .. معسكر استجلب له كل ما يعينه على البقاء امتداداً لحضارة الغرب .

فالذين عاشوا منا فى الغرب رأوا بأم أعينهم أن كثيراً من أساتذة الجامعات اليهود يحتفظون لأنفسهم بمكانين : أحدها : جامعة فى إسرائيل والآخر جامعة فى أمريكا مثلا . وإنك لتجد أن هناك تكاملا وانسجاماً تاماً فى برامج البحوث بين « المعسكر » وبين عائلته الكبيرة فى الغرب .

وإن اليهودى الشرقى والذى قدم من بلاد كاليمن والمغرب يفاجأ

فى إسرائيل بمجتمع غربى فى كل مفاهيمه وعاداته وتطلعاته .. مما جعل الكثيرين من الطبقة المتعلمة من يهود العالم العربى يهاجرون للغرب ويرفضون الهجرة لإسرائيل . . وكما قال أحدهم وهو طبيب مصرى هاجر فى أواخر الخمسينات لأمريكا :

« إن إسرائيل بكيانها الخاص وتعدادها البسيط لا يمكن أن يكون لها امتداد حضارى فى المستقبل خاص بها وستظل جيبا من جيوب الغرب . . ولو تركت وحدها ما بقت يوماً . . من أجل ذلك أفضل البقاء فى الغرب لا فى جيب من جيوب الغرب » .

وعلى كل حال نحن نريد أن نؤكد أن ما قلناه عن الحد الأدنى للكتلة العددية اللازمة لإفراز الكوادر الحضارية هام جداً ، وأن مثل إسرائيل لا يحتج به أحـد ، فهى كما أسلفنا معسكر غربى فى ديار العرب .

ولقد أدركت الدول الأوربية المعاصرة خطورة تحقيق هـذا الحد الأدنى حتى تستطيع معايشة المـاردين الضخمين فى الشرق والغرب فبدأت تتخذ خطوات تـكاملية فى محاولة لتجاوز هـذا الشرط لكل منها .

وأصبحنا نرى تعاوناً بين دول أوربا لم يسبق له مثيل من قبل فى تاريخها الطويل .. بل إن الماردين الضخمين — الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا — لينظران بعيون قلقة إلى المارد الذى بدء يبزغ

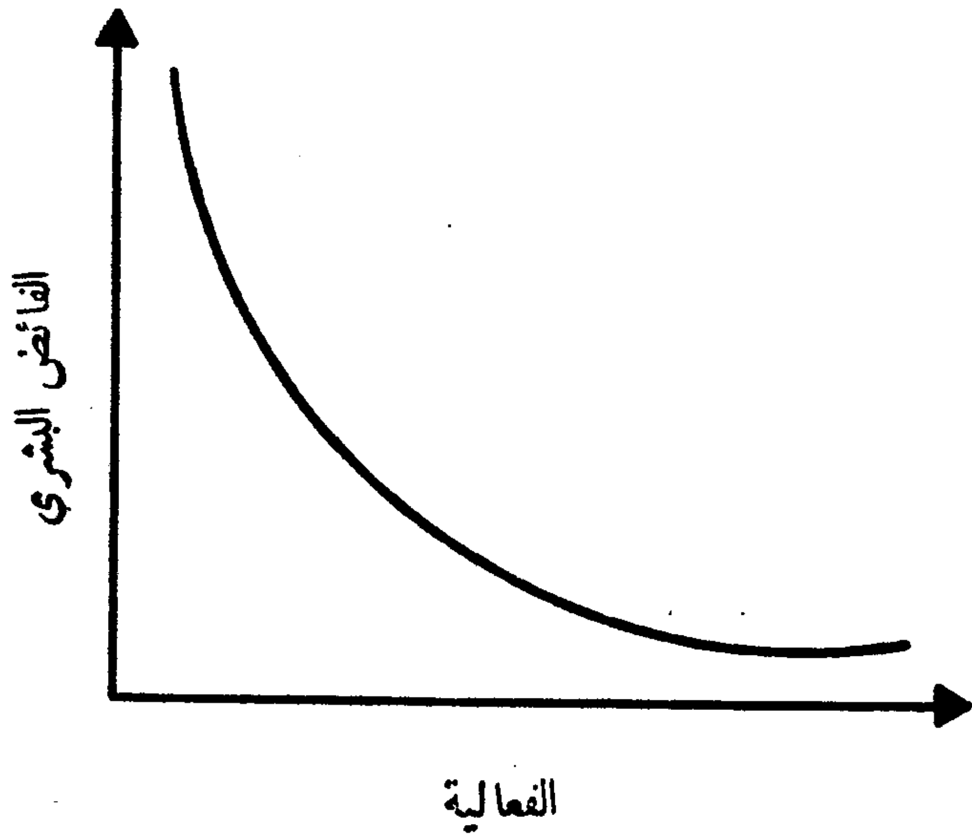
من قمقمه فى الصين . . فلو واصلت الصين زيادة الفعالية الاجتماعية للفرد الصينى حتى بلغت نصف الفعالية الاجتماعية المتوسطة للفرد الأمريكى والروسى فانها بهذا تحقق تعادلا فى ميزان الحضارة أمام أمريكا وروسيا مجتمعتين . وإن سياسة الوفاق بين أمريكا وروسيا وتطويق الصين فى آسيا كانت بعض مظاهر الخوف والقلق أمام تقدم الإنسان فى الصين . . ومن يدرى لعل هـذا الانفتاح الغربى الجديد على الصين هو محاولة تطويق من الداخل .

والسؤال الهام : ما هو الحد الأدنى للكتلة العددية حتى يمكنها تحقيق الحضارة المرجوة ؟

ربما يعيننا على الإجابة واقع الحضارة الغربية وهى فى أبهى حالها متمثلة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فى حالة المجتمع الأمريكى يكاد الحدان الأدنى والأقصى للكتلة العـددية أن يتطابقا ، حيث أن فعالية الفرد هناك هى أعلى فعالية للانسان المعاصر . .

ونحن ندرك أنه كلما زادت فعالية الفرد كلما قل الفارق بين الحد الأدنى والحد الأقصى ، حيث يتلاشى الفائض البشرى مع زيادة الفعاليـــة .

وإنه لمن الغريب أن نشاهد فى المجتمعات المتخلفة والتى تتسم بفعالية صغيرة للفرد حتى يصبح معها الأفراد فائضاً بشرياً — من



ينادون باصلاح الأمور عن طريق تحديد النسل وكأنه وحده الوسيلة الناجحة لتحقيق رفاهية المجتمع ، ويهملون الطريق الصحيح وهو طريق زيادة الفعالية الاجتماعية للفرد على أن هناك أمراً هاماً ينبغى التنبه له وهو أنه إذا عجزت أجهزة الدولة - ولفترة يمكن حسابها - أن تقوم بتدريب السواعد التى تولد ، تصبح هذه السواعد نقمة لا نعمة ، وتصبح كثرة السكان وبالا على الأمة ، فالقاعدة إذن فى التحديد المطلوب للنسل تتعلق بقضية أخرى حقيقية . ألا وهي قضية التنمية البشرية . وليس الأمر مسألة شك فى الرزق أو مخافة من الجوع . والقدره علي التنمية البشرية أمر يمكن حسابه بدقة بالغة بحيث يمكن التخطيط على أساسه لحجم النصل النافع .

إن مجتمعا ما يئن تحت فيض بشرى معوق يمكنه أن يصبح وهو يشكو من قلة الرجال ، إذا اتبع برنامجاً حضاريا يزيد من فعالية أفراده ، ويدفعهم فى طريق العمل الحضارى . إننا نستطيع أن نشاهد هذا فى مجتمعين معاصرين : المجتمع الهندى والمجتمع الأمريكي فلأن فعالية الإنسان الهندى صغيرة ، فان المجتمع الهندى يشكو من فائض بشرى معوق بينما يتلقف المجتمع الأمريكي زبدة هذا الفائض البشرى الهندى فى عمليات هجرة المتعلمين الهنود للولايات المتحدة الأمريكية .

وقد يظن البعض أن هذا يحدث لكثافة الهند السكانية الضخمة ولكن نفس الشىء يحدث هذه الأيام بين بلد كمصر وبين العالم الغربى بصفة عامة حيث تفقد مصر آلافا من خـــيرة متعلميها كل عام للمجتمعات الغربية القادرة على استيعابهم فى أجهزتها الحضارية المختلفة . .

إننا يمكن أن نقوم بتعريف « الطاقة الحضارية » كما يلى :

الطاقة الحضارية = عدد السكان × الفعالية الاجتماعية الوسطى.

فبهذه المعادلة يمكننا أن نرى أن فعالية الإنسان الهندى مثلا أقل من فعالية الإنسان الأمريكى . ذلك أنه رغم عدد سكان الهند يقارب ثلاثة أضعاف سكان أمريكا إلا أن الطاقة الحضارية لأمريكا أكبر بكثير من الطاقة الحضارية للهند .

على كل حال لقد استطردنا فى هذا الحديث عن علاقة الفائض البشري بالفعالية الاجتماعية والطاقة الحضارية لأهميته البالغة بالنسبة لفهمنا لكثير من الأمور التي تتعلق بالطاقة البشرية فى بلادنا ، ولهذا باذن الله بحث خاص .. ولكننا الآن نعود إلى السؤال السابق حول تقديرنا للحد الأدنى للكتلة العددية القادرة على إفراز الكوادر الحضارية فنقول : أنه إذا كانت الكتلة العددية فى أمريكا قد حققت أكبر فعالية اجتماعية للانسان المعاصر ، فانه يمكننا القول إن هذه الكتلة تمثل تقريباً مناسباً للحد الأدنى . . أى أنه ينبغى علينا ونحن نتأهب لإقامة حضارة معاصرة أن يكون لنا كتلة عددية تقارب الكتلة العددية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فاذا لم نستطع فعلى الأقل أن يكون لنا امتداد طبيعى فى العالم بنفس المقدار أو أكثر . فاننا مثلا فى عالمنا العربى لا يمكن لكل دولة من الدول العربية أن تقيم حضارة بمعزل عن أخواتها لأن شرط الكتلة العددية (فى حدها الأدنى) غير محقق على الإطلاق .. ولا مفر أمام عالمنا العربى إن كان يريد أن يصنع لنفسه حضارة معاصرة من أن تتكامل أجزاؤه بعضها مع بعض تكاملا تاما فى مجالات الحياة المختلفة .. وإن التفريط فى هذا التكامل هو جريمة قومية سوف تودى بكل الجهود المبذولة من أجل إقامة بنيان حضارى فى أى بلد عربى .

وقبل أن نختتم حديثنا عن الحد الأدنى للكتلة العددية المرجوة يجب أن ننبه مرة أخرى إلى مثال أوربا . فان انحسار الاستعمار القديم والذى كان يمثل نوعا من أنواع الامتداد السكانى لدول أوربا

قد وضع دول أوربا فى مأزق حضارى مع وجود أرقام جديدة للحد الأدنى فى كل من أمريكا وروسيا .. أرقام جديدة لاتملك أوربا إزائها إلا أن تلجأ للتكامل بعضها مع بعض . إن كل دولة من دول أوربا تملك احتمالا حضاريا لأن تصبح مثل أمريكا ولكن كتلتها العددية لا تحقق لها هـذه الإمكانية الحضارية . . وأصبح ضعف الإمكانية الحضارية يؤثر على الاحتمال الحضارى فبدأ كثير من علماء أوربا يهاجرون لأمريكا حيث الإمكان الحضارى فى أوج تألقه . وإن هذا الأمر .. أى ضعف الإمكان الحضارى مع وجود الاحتمال الكامل للحضارة قد وضع أوربا أمام أمرين :

الأمر الأول : إن تتحد أو على الأقل أن تتكامل .

والأمر الثانى : أن تلتصق بأمريكا التصاقا شديداً وهذا لن يضير البنية الحضارية لها فهى متشابهة مع البنية الحضارية الأمريكية تمـاماً .

أما بالنسبة لنا فى عالمنا العربى فاننا ما زلنا فى داخل كل دولة لا نملك احتمالا حضاريا مناسباً . . حقاً أننا نملك احتمالا حضاريا مكانيا (فقط) ولكننا ما زلنا لا نملك احتمالا حضاريا إنسانيا فى شتى أقطارنا . . فالإنسان العربى فى كثير من بلادنا لا يفكر فى قيام حضارة بقدر ما يفكر فى مشكلات البقاء سواء كان ذلك فى مواجهة الجوع أو فى مواجهة الخوف . . وإن هذه الحال قد هبط بالمثقف العربى هبوطا مؤسفاً ، حيث أصبحنا نرى بعض هؤلاء المثقفين

يتنابذون بالألقاب الأقليمية دفاعا عن فرقة إقليمية كريهة ومغافين أفكارهم الكريهة بمصلحة إقليمة مزعومة ومستخدمين سلاح السياسة الوقتية للنظم المختلفة لضرب مبدأ التكامل العربى الذى يجب أن يظل رفيع العماد فوق كل السياسات وكل النظم .

إن على المثقف العربى اليوم أن يتخلص من أنانيته الإقليمية ويفكر من جديد كيف يحقق مبدأ التكامل والترابط مع بقية أقاليم الوطن العربى . . وبغير هذا يصبح كل مجهود مبذول هو حرث فى الماء وتضييع للطاقة .

ومرة أخرى إن الشرط الموضوعى الذى يمليه علينا الحد الأدنى للكتلة العددية المرجوة لن يتحقق فى عالمنا العربى إلا بالترابط والتكامل ، وليس لنا خيار آخر مثلما ذكرنا فى حالة أوربا حيث يمكن لدولة صغيرة أن تلتصق بدولة كبيرة من غير أن تغير بنيتها الحضارية . . فنى حالة عالمنا العربى لا توجد مثل هذه الدولة العربية أو الإسلامية التى صنعت لنفسها حضارة معاصرة حتى يمكن لدولة أخرى أن تلتصق بها .

وفى ختام ملاحظاتنا عن الشرط العددى نضيف أن الفعالية الاجتماعية لأفراد مجتمع محدودة ومقيدة بقيود الضعف الإنسانى العام وإن القرآن ليحدثنا عن هذه الفعالية وما تشحذه من قدرة قتالية عند الفرد فيقول :

« يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال أن يكن منكم عشرون

صابرون يغلبوا مائتين وأن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين » . (الأنفال : ٦٥)

أى أن هناك حداً أقصى للفعالية الإجتماعية لا يصل إليه كل الناس وإنما يصل إليه النفر القدوة الذين يضيئون لمن بعدهم السبيل.. وهؤلاء النفر القدوة قلة فى عددهم . . يتأسى بهم من خلفهم ولكن لا يبلغون ما بلغوا فان فيهم ضعفاً . .

ثانيا : الشرط المكانى :

إن المكان الذى تعيش عليه أمة من الأمم بجغرافيته وما يكن فى أعماقه وينمو فوق سطحه ليؤثر تأثيراً بالغاً فى قيام الحضارات وبقائها ... بل وقد يؤثر كذلك على المزاج الإجتماعى ويطبع الحضارة بخصائص تميزها عن حضارات أخرى نشأت فى مكان آخر .

وإذا نظرنا إلى الناحية الجمالية البحتة فى البيئة وتأثيرها على الإنسان فاننا سنبصر استعداد الإنسان للتجاوب مع البيئة المحيطة به ورؤية الأشياء حوله بمنظار جمالى خاص به وبمن يعيشون معه فى نفس البيئة .

أى أنه يمكن للبيئة والفرد أن يتفاعلا فينتج عن هذا التفاعل تصور جمالى خاص بهما وحدهما .

فالإنسان الذى نمـا وترعرع في بيئة صحراوية متفاعلا معها قد كون بمجرد الزمن منظاراً جمالياً يرقب من خلاله مايثير وجدانه حباً وتعاطفاً مع هذه البيئة وشوقاً إليها وحنيناً إذا ماباعدت بينه وبينها الأيام .

وهذا الإنسان الصحراوى المتفاعل مع بيئته الصحراوية والذى يرى فيها ألواناً وظلالا جمالية مختلفة ... هذا الإنسان لو وضع فى بيئة ثليجية مثلا فانالغلالة التى تحيط به من بيئته الصحراوية ستحول بينه وبين التفاعل مع البيئة الجديدة فى الفترة الأولى من لقائهما وربما احتاج إلي وقت طويل ليتفاعل مع البيئة الجديدة وليكون منظاراً جمالياً جديداً .

أى أن المناظير الجمالية تختلف باختلاف البيئة وتتعدد بتعددها . ونحن نقرأ فى سورة الرحمن آيات بينات تحدثنا عن نوعين من الجنان : جنتان ذواتاً أفنان يقابلها جنتان مدهمتان .

ويصف الحق سبحانه وتعالى خصائص هذا النوع من الجنان فى مقابل هذا النوع الآخر ليثتثير منظارين مختلفين من المناظير الجمالية . . منظار نشأ صاحبه فى بلاد الخضرة والمـاء ومنظار آخر نشأ صاحبه فى جو الصحراء والخيام .

وأننا نؤكد أنه لولا تعدد المناظير الجمالية ماعمرت الأرض نهذا التعدد هو رحمة الله للناس حيث جعل سبحانه من سنن الكون أن يحدث التفاعل بين الإنسان والمكان ـ أي مكان ـ ألفة تؤدى إلى

تكوين منظار جمالى بعينه يربط هذا الإنسان بهذا المكان لتزيد فعاليته معه أي ليعمر المكان بأهله .

وإن هذا المنظار الجمالى الذى يتكون عند الإنسان فى مكان ما ليعمل مع مؤثرات أخرى على ربط هذا الإنسان بهذا المكان الذى نشأ وترعرع فيه ... حيث يصبح حنينه لهذا المكان هو التعبير الظاهر لهذا المنظار الجمالى .. وهكذا كان رسول الله ﷺ يناجى مكة فى حديث آسر حزين :

« والله لولا أن أخرجنى منك قومك ماخرجت » . أي أن المنظار الجمالى ومايسببه من عواطف وأحاسيس يلعب دوراً هاماً فى بقاء الإنسان بين قومه خادما لهم ... بانياً لحضارتهم و إن شق عليه ظلمهم وتخلفهم .

ونحن هنا نتحدث عن ظاهرة جماعية لتفاعل يحدث بين جماعة وأرض ، ولايغيب عن الذهن أن مثل هذا التفاعل يمكن أن يحدث بين فرد نشأ وترعرع فى مكان ما وبين مكان آخر ولكن هنا يلعب العلم أو العقيدة دوراً هاماً وهو على كل حال تفاعل محدود إما بحدود الدراسة أو العقيدة ، ومن أمثلة هذا النوع من التفاعل هذا العشق والوله بالصحراء في كتاب « الطريق إلى مكة » حيث يصف الكاتب الأستاذ محمد أسد رحلاته فى جزيرة العرب فى بيان مبدع أخاذ فيحبب إلى نفسك كثبان الرمال المتحركة وأمواجها المتغيرة ويشعرك بالظمأ الذى لاترويه إلا آبار تيماء وتشم رائحة

القهوة العربية وهو يصف لك خادمه زيد وهو يعدها له وهم يستريحون من عناء سفر يوم طويل ...

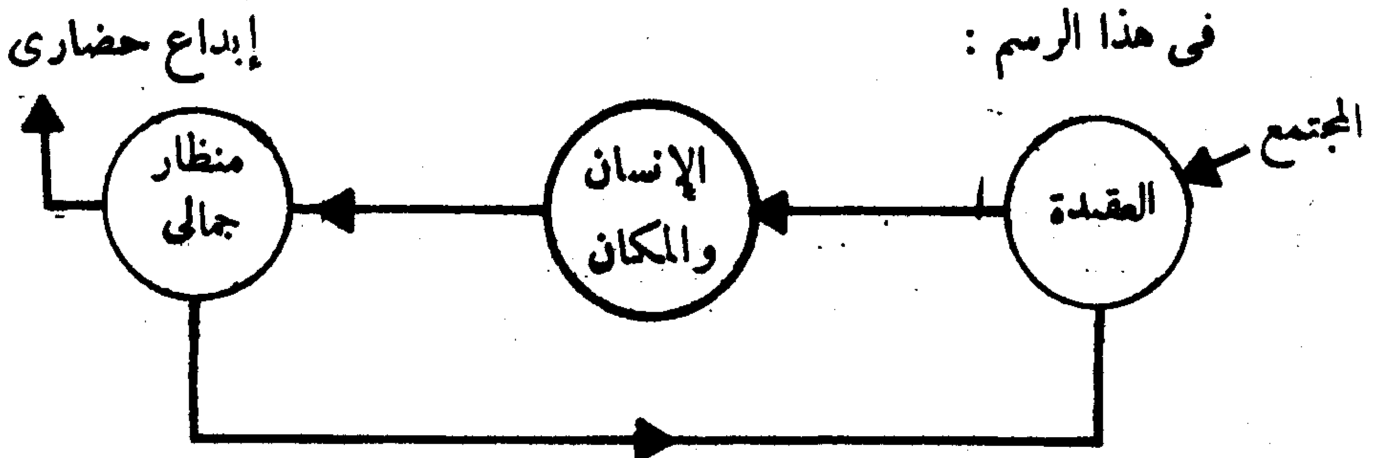
إننــا هنا أمام تفاعل ساعدت عليه عقيدة الرجل الذى آمن بها وارتباط هذه الأرض تاريخياً بهذه العقيدة ...

وحيث أدى هذا التفاعل إلى تكوين منظار جمالى جديد لهذا العاشق لأرض العرب وماعليها .. هذا المنظار الذى أسر هذا الرجل فى أرضنا إلى يومنا هذا حيث يقيم فى المغرب وبجانب هذا العشق العقيدى للأرض يحدث أيضاً العشق الدراسى حيث نجد كثيراً من العلماء الذين يتبتلون فى الصحارى والغابات لدراسة ظواهر الطبيعة المختلفة فى غير بيئتهم التى نشأوا فيها وعندما يصبح التفاعل بين إنسان ومكان نشأ فيه مزيجاً من تفاعل عقيدى وتفاعل دراسى مضافا إليهما أن هذا المكان هو مرتع الطفولة وملاعب الصبا وما يتركه ذلك فى النفس من التعود على الأشياء وراحة الحواس فيما تعودت عليه .. عندما يصبح التفاعل بهذا القدر .. يؤدى ذلك لا محالة إلى منظار جمالى بناء .

والقرآن الكريم يدعو فى كثير من آياته إلي النظار المستبصر فى الكون المحيط بنا ليتكون لدي الإنسان منظاراً جمالياً يستطيع به أن يرى الجمال والإبداع والإعجاز فى الخلق من حوله ليؤدى به إلى الإيمان بالقدرة غير المتناهية للخالق عز وجل ومن ثم ترسخ عقيدته فى الله .

ففى حالتنا كمسلمين نرى أن العقيدة تدعو للنظر لتكوين المنظار الجمالى فإذا تكون عمل هو على ترسيخ العقيدة لتقوم هي بدورها فى تحسين هذا المنظار الجمالى لتزداد العقيدة رسوخا ... وهكذا دواليك فى خط بيانى مستقيم لاينتج عنه إلا التقدم والحضارة .

ولعلنا نضع هذه التغذية المتصلة بين العقيدة والمنظار الجمالى فى هذا الرسم :



فالمجتمع يورث الإنسان فيه عقيدة مبدأية تبدأ بها عملية التفاعل بين الإنسان والمكان حيث يؤدي هذا التفاعل إلى تكوين منظار جمالى معين يساعد على تثبيت هذه العقيدة كما أسلفنا ولكن لابد أن نقرر هنا أن بعض العقائد قد لاتؤدى إلى تفاعل بين الإنسان والمكان ولايتركون حينئذ أي منظار جمالى فيعيش الإنسان فى غيبوبة حضارية على هامش الزمان والمكان ... والمثال على ذلك ما تدعو إليه بعض العقائد من زهد فى الحياة وفى عمارتها فتقعد أصحابها عن العمل وترضيهم بشفافية مزيفة ...

وكثيراً ما تجد هذه النظرية عند بعض فرق الصوفية فى بلادنا وحتى عند غير المسلمين .. بل وظهرت حديثاً عند جماعات الهيبز

بعد أن استبطنوا أفكار الصوفية الهندوسية وغيرها . ولا نعرف كثيراً عن عقائد الإنسان الإفريقي الذى ظل آلاف السنين فى الأدغال ، ولم تبدو أى بارقة تفاعل بينه وبين البيئة رغم ثراء البيئة ...

فليست كل العقائد إذا قادرة على إحداث تفاعل بين الإنسان والمكان .

كما أن طبيعة التفاعل تختلف بطبيعة العقائد التى أحدثته . فالرجل الذى يؤمن أن من قطع سدرة أو شجرة فى فلاة يستظل بها عباد الله فهو آثم لايمكن أن يحرق ملايين الأطنان من القمح لأسباب اقتصادية بحتة بينما تموت ألوف البشر من الجوع كذلك الرجل الذى يقتصد فى وضوئه ولو كان على نهر لايمكن أن يسرف فى استخدام الماء إسرافا يصل إلى السفه . . فما بالكم باستخدام الطاقة والإقتصاد فيها .

وحسبنا ما قلناه فى موضوع المنظار الجمالى لننتقل إلى عنصر آخر من ضمن الشرط المكانى يتعلق بحجم التفاعل مع المكان . فلقد قامت معظم الحضارات فى القديم حول الأنهار وفى مناخ معتدل وكان ذلك لازما للتفاعل الحضارى حيث لم يكن يملك الإنسان وسائل شتى لترويض البيئة كما يملك اليوم . . فكان لا بد له من بيئة مروضة يضيف هو إليها ما يمكنه من التفاعل الحضارى . . ومع مرور الزمن يمتلك إنسان الحضارة وسائل جديدة للتفاهم مع المكان

فتمتد بذلك رقعة إبداعه الحضارى .. وغدا سوف يمتد التفاعل بين الإنسان والمحيطات وما تحت الأرض والفضاء الواسع العريض. ويضرب الإنسان المتفاعل فى أجواز الفضاء وأعماق الأرض وإن هذا ليضع أمامنا عنصراً جديدا لابد من تحقيقه ضمن الشرط المكانى .. إذ لابد لأمة تريد أن تقيم حضارة أن تصل بحجم تفاعلها مع المكان إلى مستوى العصر .. أى إلى مستوى الحضارات المعاصرة. فاذا كان إنسان الحضارة المعاصرة قد استطاع أن يصل إلى أعماق الأرض طلبا للرزق وإستخدام الفضاء لمواصلاته وإتصالاته وأصبحت المحيطات بين يديه يخرج منها رزقا حلالا ويعبرها ممهدة ويعيش فى أعماقها ميسرة .. إذا كان هذا هو حجم التفاعل مع المكان فان أى أمة تبنى حضارة لابد لهـــا أن تصل بتفاعل إنسانها مع المكان لمثل هذه القدرات المعاصرة.

إن كبر حجم التفاعل يعنى مزيدا من الكنوز التى تمكن الانسان من العيش الكريم وتفتح له بابا كلما أوصدت الأيام بابا فاذا ضاقت به الزراعة فى الأرض وسعه البحر فأكل من لحومه ونباتاته .. وإذا لم يسعفه ظاهر الأرض بالوقود لجأ إلى باطنها طلبا له وسعيا وراءه.

فاذا كان الانسان قادرا على التفاعل الكامل بمستوى العصر مع البيئة المحيطة به فان هذا سوف يحدد حجما مناسبا للمكان الذى يعيش فيه حتى يمكنه ذلك من البقاء الحضارى والتطور الحضارى.

فمثلا إذا كان هذا الانسان يعرف أحدث الوسائل لاستخراج البترول من باطن الأرض فهو فى هذا المثال قادر على التفاعل الكامل فى هذا المضمار .. ولكن هذا التفاعل الكامل لامعنى له إن لم يملك الأرض التي تحتها هذا البترول بكمية كافية لبقائه وتطوره أو كانت له من العلاقات الوثيقة ما يمكنه من الحصول على البترول من أراضى الغير .

ذلك إذاً هو الشرط المكانى من وجهة نظر اقتصادية .. أن يكون حجم المكان كافياً لعملية البقاء والنمو فى حالة التفاعل الكامل بمستوى العصر .

ثالثا : الشرط الزمانى

عندما يتاح لمجموعة حضارية الكتلة العددية المرجوة والامتداد المكانى المطلوب فانها فى مرحلة البدء تواجه بالشرط الزمانى الذي يتمثل في فترة زمانية تحتاجها الأمة لتبنى لنفسها مؤسسات على مستوى الحضارات المعاصرة .

إن على الأمة أن تزيد معدل نموها حتى تغلق الفجوة بينها وبين الحضارات المعاصرة .. تزيده عن معدل النمو فى الحضارات المعاصرة حتى تستطيع اللحاق بها .. ولو أنها نمت بنفس المعدل الذى تنمو به الحضارات المعاصرة فستظل هناك دائماً فجوة بينهما . وأننا سوف نلحظ أن معدلات النمو التى ننمو بها تتغير بتغير مراحل العملية الحضارية

من مرحلة التكديس إلى مرحلة الفهم والاستيعاب .. ثم مرحلة الإبداع .

وتتميز مرحلة التكديس بمعدل بطيء للنمو مما يسبب ضغوطا نفسية للمستعجلين قطف الثمار والذين يرون أن الفجوة تزيد ولا تنقص فيستسلمون لليأس وربما لاذوا بالفرار ليعيشوا فى أمة تعيش مرحلة متقدمة ، أما الجماعات الحضارية فيجب أن تدرك أن بطء النمو فى هذه المرحلة أمر طبيعى جداً ، فهى مرحلة غرس لاجنى يجب أن تصبر عليها ، وتتواصى بهذا الصبر حتى يثبت الرجال فى مواقعهم غير مستعجلين ثمار جهادهم متمثلين دائماً بالقول المأثور :

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا

واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا »

فاذا كان هذا القول المأثور هو شعار مرحلة التكديس استطاعت الأمة أن تمر بهذه المرحلة من غير ضغوط نفسية مدمرة ومعوقة لعمليات النمو ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الضغط النفسى فى مرحلة التكديس من أخطر الأمراض الحضارية التى تصيب معظم شعوب مايسمى بالعالم الثالث .. حيث يظن مثقفو هذه الشعوب وهم يرون الفجوة الزمانية كأنها تزداد اتساعاً .. فيظنون أنه لا أمل فى اللحاق ويفقدون الثقة فى أنفسهم وتضطرب خطاهم على طريق الحضارة ويفرون من الواجب ليبحثوا لأنفسهم عن ملجأ متحضر

ويتركون وراءهم شعوباً متخلفة كانت قد أعدتهم ليأخذوا بيدها في طريق التمدين وهكذا تجد هذه الشعوب نفسها تزداد تخلفاً .. فكلما أعدت صفوة من أبنائها لعمليات البناء فقدتهم . . فتخسر المال وتخسر الزمن ، ونحن نؤكد مرة أخرى أن معدل النمو البطيء في مرحلة التكديس لا يعني ضياع الجهد وإنما هو « جهد مكنون » أو قل إنها طاقة وضع وليست طاقة حركة بالتعبير الديناميكي . . يمكن للأمة استردادها كطاقة حركة في الخطوات التالية لمرحلة التكديس .

فاذا تجاوزت الأمة مرحلة التكديس حيث تكون قد كدست في وعائها الإجتماعي طاقات علمية وتقنية وروحية ، وشحذت بذلك الفعالية الاجتماعية للانسان شحذاً كبيراً .. إذا انتهت من هذه المرحلة التي تتميز بالبطء فانها تقبل بذلك على مرحلة جديدة تتميز بسرعة النمو ألا وهي مرحلة الفهم والاستيعاب . ففي هذه المرحلة الجديدة تبدأ الأمة في فهم العلاقات العضوية بين الطاقات المكدسة في وعائها الإجتماعي .. فتكتشف لنفسها وبنفسها ماتم اكتشافه في أمم أخري لتصل إلى الجوهر بين الركام المكدس .. ويعطيها ذلك الاكتشاف قدرات جديدة . . حيث سيكون انطلاقها من الجوهر لا من الركام المكدس . . وحيث تكون الأمة قد تعرفت على قوانين التحضر لا على نتائجه فحسب .. فيصبح عندها القدرة على الخطو بثقة في ميدان الحضارة وهي غير منبهرة بالركام المكدس . . وإنما عاشقة للجوهر متفاعلة معه . وتبدأ الضغوط النفسية تنقشع عن ضمير الأمة

فى هذه المرحلة حيث تجد نفسها وجهاً لوجه مع الينابيع الأساسية للابداع الإنساني المعاصر .. وتسرع حينئذ مسيرتها رويداً رويداً.. فكلما حققت نصراً زادها ذلك ثقة ورسوخاً .. فاذا واصلت العمل — وهي مدركة لكل القيود والشروط التى أسلفنا ذكرها — فانها ستصل لامحالة إلى مرحلة الإبداع حيث يصبح معدل نموها أسياً[1] ..

وتتميز هذه الفترة .. فترة الإبداع المادى فى الحضارة الغربية المعاصرة أن تغيراً أسياً حدث أيضاً فى العلاقات الاجتماعية والتصورات الكلية . . حدث بسرعة مذهلة .. أسرع من فكر قادة هذه الحضارة وعلمائها .. واليوم تعيد الحضارة الغربية حساباتها لترى أين كان الخطأ فى وجهتها . . بل ينظر كل إنسان اليوم فى الغرب فى العلاقات الأساسية بين التقدم فى العلوم وبين المجتمع وما يحمل من عقائد وقيم ، وأصبحنا نرى أقساماً جديدة فى معظم جامعات أمريكا تدرس التفاعل بين التقدم العلمى والتكنولوجى وبين المجتمع والدين .. فى محاولة لاستدراك الآثار الجانبية فى المجتمع لهذا التقدم الأسى فى الحياة المادية .

إن الآثار الجانبية للتقدم المادى سوف تؤثر على منحنى التقدم وتبطىء من خطاه .. حيث أصبح هذا التقدم يهدد حياة الإنسان

---

(١) يسمى نمو ظاهرة طبيعية نمواً أسياً إذا كان معدل هذا النمو يتناسب مع الكمية النامية نفسها فكلما زادت زاد معها المعدل وزادت هى أضعافاً مضاعفة والدالة الرياضية التى تصف هذا النمو تسمى بالدالة الأسية .

ويفسد عليه بيئته التى يعيش فيها ولا بد من مراجعة كاملة لكل البرامج الحضارية لتأخذ فى حسبانها الآثار السيئة للتقدم العلمى والتكنولوجى .

أننا هنا لا نقف موقف هؤلاء السذج الذين يرون آثار الحضارة الغربية السيئة أو يسمعون عنها فيتنبئون متعالين بهلاك هذه الحضارة وحتمية فنائها . . ان الآثار السيئة للحضارة الغربية هي آثار جانبية ولكن هذه الحضارة تزخر بالحياة قوية فتية . وحسب أهلها فخراً أنهم هم الذين اكتشفوا آثارها السيئة وبدأوا يحاولون تداركها لحماية الحضارة ودفعها إلى الأمام .

نحن فى بحثنا هذا نحاول فقط أن نتبين المنحنى الزمنى للحضارة ومعدل تغيره .. حيث لاحظنا أن المعدل الأسى الذى بدأ فى مرحلة الإبداع سوف يتناقص حتى يحدث التوازن بين التقدم المادى وبين المحافظة على المجتمع (أو البيئة) .

ونحن الآن نلاحظ حدوث هذا فى الغرب . . حيث يحاول الغرب المتقدم علمياً وتكنولوجياً أن يدرس كيفية إيجاد هذا التوازن بين التقدم والبيئة . . وفى هذا تلعب القيم الأساسية للانسان دوراً هاماً فى ترشيد تفاعل الإنسان مع البيئة . . وتبرز القضية بشكل آخر . . فى مجال الأخلاق والقيم تتحول قضية الصراع بين التقدم المادي والبيئة إلى قضية الصراع بين الترف والتقشف . .

فاذا استطاع الإنسان أن يصل إلى توازن بين هذين الطرفين فان التقدم المادى لن يؤذيه بل سوف يعينه فى دروب حياته المختلفة .

وبالنسبة لنا ونحن نحاول أن نتبصر بالشروط الزمانية التى يتصف به المنحنى الحضارى لمسيرتنا لابد لنا - إذا أردنا أن نسرع خطانا فى دروب حضارتنا المرتقبة - أن نستفيد من الدروس والعبر التى لقيتها الحضارة الغربية المعاصرة .. ولعل أبلغ درس لنا فى كل المراحل هو أن يجد الإنسان لنفسه طريقاً وسطاً بين الترف والتقشف ولعل هذا بعض ماعنته الآية الكريمة : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط .. فتقعد ملوماً محصوراً » .

إن إيجاد هذا التوازن يركز كل الإمكانيات المتاحة لتعجيل خطى الإنسان نحو حضارته .. حيث لايصبح الترف والرفاهية هما همه المقعد المقيم .. وإنما تبقى دائماً عمارة الأرض فى عبادة الله هى هدفه القدسى ، ولايضيره بعد ذلك زادت الفجوة فى مراحل أو قلت مادام قد بذل كل ما يستطيع من جهد وأعطى كل مايقدر عليه من بذل .. وأنه لمغلق فجوته الحضارية باذن الله ..

« وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » .

صدق الله العظيم

الفصل الرابع

عناصر هامة فى شحذ الفعالية الاجتماعية للامة

عند حديثنا عن جوهر التحدى الحضاري والذى حددناه بعناصر أربعة أولها هو شحذ الفعالية الروحية للأمة برز تساؤل عن من يقوم بمهمة شحذ هذه الفعالية الروحية للأمة وانتهينا إلى أنها مهمة النفر القدوة . . حيث تترجم رسالة ما إلى تصور ذهنى وسلوك عقيدي يضىء بالقدوة أكثر مما يضىء بالفلسفة ويجمع حوله القلوب والأفئدة فتنساب فى سلوك جماعي موحد تحسه فى تصرف البسطاء من الناس كما تراه فى علمائهم .

فنى نقطة البدء الحضارى لابد أن تنصرف كل جهود النفر القدوة إلى شحذ الفعالية الروحية لدي الأمة عن طريق تربية الفرد ليتأهب للانطلاق فى نشاط حضاري بناء . . . حتى إذا حققت بعض ماتصبو إليه من قاعدة عريضة متأهبة للبناء بدأت بأخذ أيديها وترشيد مسارها فى دروب التنمية المختلفة ولايصرفن هؤلاء النفر القدوة عن هذه المهمة الواضحة أى صارف من عرض قريب أو فكر مريض بل يجب أن يعضوا عليها بالنواجذ فيجددوا من الوسائل الحديثة مايعينهم عليها ولايتحجروا على وسيلة بعينها حتى ينطلقوا دوماً إلى الأمام ويحققوا النتائج المرجوة .

ذلك أن هؤلاء النفر القدوة لابد أن يتمثلوا الوسائل العصرية فى مجال التربية ليستطيعوا الوصول إلى مناطق الفراغ فى نفسية الفرد فى سهولة ويسر . إن هذا الفرد ليس معزولا عن العالم فى

عصرنا هذا ، فأجهزة الأعلام الحديثة أصبحت فى متناول الجميع .. وهو لذلك معرض لجهات تخريب كثيرة ومتعددة تشده ذات اليمين وذات اليسار . . . هـذه الجهات التى تستغل الإنجازات العلمية والتكنولوجية للوصول لأهدافها .

لابد لهؤلاء النفر القدوة أن يجابهوها بوسائل متقدمة عصرية فيستطيعوا بذلك أن يجدوا لأنفسهم مكاناً على خريطة فراغ الفرد يقيموا فيه بنيانهم المنشود .

إذن فلابد لهؤلاء النفر القدوة أن يتعرفوا على مناطق الفراغ فى الخريطة النفسية للأمة ثم عليهم أن يدرسوا وسائل الوصول إلى هذه المناطق كنقط ارتكاز للانتشار بعدها فى بقية المناطق النفسية للانسان ... أى لابد من فهم كامل لمفاتيح الشخصية القومية المراد شحذ فعاليتها الروحية كشرط مبدئى للوصول إليها .

فاذا تحقق الفهم الكامل للشخصية القومية ومناطق فراغها النفسى تبدأ المهمة التالية لهؤلاء النفر القدوة ألا وهى إعداد برنامج لشحذ الفعالية الروحية يأخذ بيد الإنسان فى طريق الحضارة ولايحبسه فى سراديب تاريخية وجيوب راكدة .

وأنه لايكفى فى هذا المقام حسن النية الحضارية لدى النفر القدوة إذا لم يشغلوا أنفسهم باعداد هذا البرنامج إعداداً علمياً محكماً ...

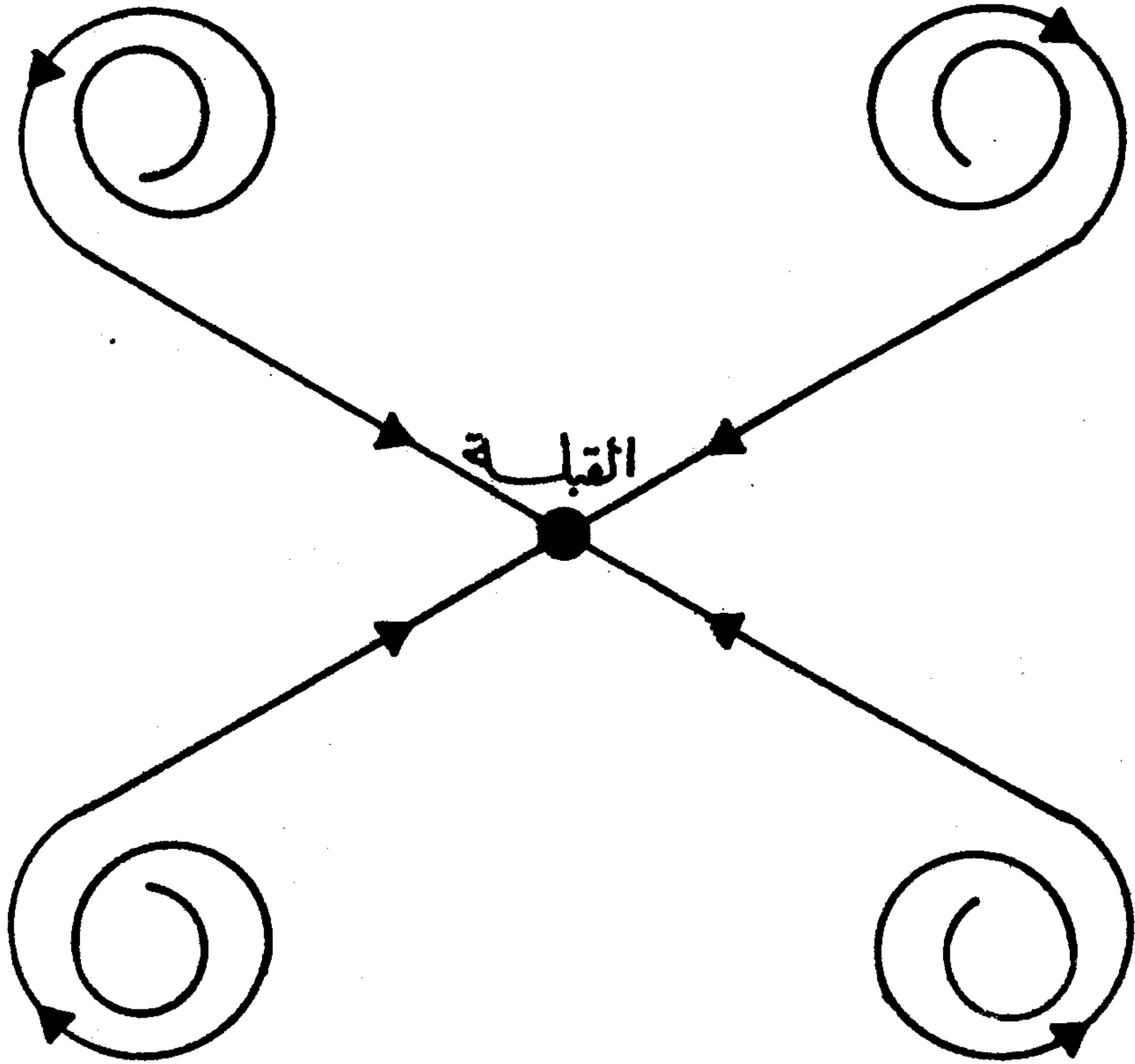
ذلك أن البرامج المطروحة للجماعات الإسلامية المختلفة والتي تعمل في الساحة الحضارية برامج تحتاج إلى إعادة نظر في كثير من أجزائها .

فالناظر نظرة شمولية إلى الساحة الحضارية لايبصر حركة في اتجاه واحد بناء وإنما يلاحظ دوامات وجيوبا منفصلة بعضها عن بعض .. كل جيب قد استأثر بجزء من شباب الأمة يديره في ساقية برنامج للف الدائري (حول نفسه) . . . فاذا أصابه الملل من هذه الساقية انتقل إلى ساقية أخرى .

ونحن لانرفض تعدد البرامج المطروحة لشحذ الفعالية الروحية للشخصية القومية .. ولاننكر أيضاً أن ذلك سوف يخلق دوامات متعددة في محيطنا القومي ولكننا ننكر ديمومة الدوران في نفس الدوامة لنفس الإنسان . نحن نريد لهذه الجيوب أن تصبح كالمعجلات الكهرومغناطيسية .. ففي هذه المعجلات (السيكولوترون) تجد ذرة مشحونة نفسها في مجال كهربائي ومغناطيسي فتزداد سرعتها ويزيد مدارها اللولبي حتى تصل إلى السرعة المطلوبة فيلوى عنقها ماكس إلى صراط مستقيم .

من أجل ذلك يجب أن تتفق كل برامج الإعداد الروحي على كلمة بينها سواء وأن تكون نتائجها بالنسبة للأمة واحدة « إنسان متأهب للبناء » . وفي سبيل ذلك يجب أن يبذل حكماء الجماعات

الحضارية جهداً خاصاً فى الحوار الدائم مع بعضهم البعض حتى تتضح معالم « الكلمة السواء » التى يجب أن تصبح جزءاً من الدستور الدائم للأمة .



نموذج لدوامات شحذ الفعالية الروحية حيث تختلف برامج « التعجيل » الحضارى فى داخل الدوامة ولكنها جميعها تدفع بنتاجها إلى قبلة واحدة .

وأخطر ما يحدث فى الأمة هو اهدار الطاقة البشرية فى هذا « التعجيل » الدائرى للانسان فى هذه الدوائر المغلقة المعزولة عن بعضها البعض .. بل والمتشاحنة أحياناً .. حيث يجد الإنسان نفسه يدور فى دائرة مغلقة فيعود إلى حيث بدأ ثم يبدأ من حيث عاد .. وهو يظن أنه يحسن صنعاً ويبنى وطناً .. ويمضى الزمان فيكتشف هذا الإنسان أنه زاد أمته تخلفاً بهذا « الاستبسال الدائرى » وينبع من هنا طوفان من المشاكل النفسية تؤدى محصلتها إلى يأس من البدء الحضارى .. وينهار مشروع الحضارة فى مهده .

من أجل ذلك وجب أن لايكون منهج الإعداد قادراً فقط على ضخ كمية من الطاقة الروحية فى الإنسان بل له القدرة أيضاً أن يمنح هذا الإنسان « قوة فكرية لتوجيه هذه الطاقة » .

ان استحداث علم جديد نسميه مثلا « علم الحضارة » .. علم يبحث فى الضرورات الحضارية ومايستلزم ذلك من مواقف فكرية وعملية لكل فرد فى الأمة .. إن استحداث هذا العلم يبدو أنه أصبح ضرورة فى معاهدنا جميعها . ذلك أن كل أفراد الدوامات التى أشرنا إليها من قبل ، يتكون وعيهم الحضارى فى المعاهد والجامعات ..

ونحن ندرك أن نمو هذا النوع من الدراسات فى معاهدنا العليا لن يضطلع به إلا نوعية نادرة من الأساتذة من كافة التخصصات..

وهم بدورهم لابد أن يفرغوا جزئياً لهذه المهمة . . كما يحدث فى الغرب حيث نجد أستاذاً فى الكيمياء يعطى جزءاً من وقته فى الجامعة للتدريس والبحث فى هذه المجالات . . وحيث توقف المؤسسات العامة والخاصة جزءاً من تبرعاتها على مثل هذه الأمور .

إن استحداث مثل هذا العلم سوف يوفر على آلاف وملايين من الشباب السير فى الطرق المســـدودة ولا يهدر طاقتهم فى عمليات « الاستبسال الدائرى » إنمـا ينير لهم طريق الحضارة فيمضوا فيه على بصيرة . . كل بمركبته الخاصة . . ولكنهم فى نفس الطريق .

أن الإعداد لهذا العلم يستلزم جدية تامة من المؤمنين بضرورته .. حيث يطرحون كل المشاكل المتعلقة بالبدء الحضارى فى صيغة بحوث ينصرفون إليها هم ومن معهم من باحثين . . حتى إذا اكتمل كثير من هذه البحوث وأصبح فى حكم اليقين ينظر فى تدريسه فى مجموعة مناهج تبدأ من قبل الجامعة إلى ما بعدها .

وفى هذا المجال يجدر أن نعيد النظر فى مجموعة المناهج التى تحمل اسم « الثقافة الإسلامية » فى بعض جامعاتنا أو « التربية القومية » فى جامعات أخرى لتتحول تدريجيـــاً إلى مناهج فى « علم نشوء الحضارة ونموها » .

فمناهج الثقافة الإسلامية فى بعض جامعاتنا على سبيل المثال تبحث

فى التراث الحضارى للمسلمين .. أى أنها تبحث فى حضارة الأجداد وهي بهذا جزء من دراسة التاريخ . . ثم إذا انتقلت للحاضر أصبح همها الحديث عن حضارة الغرب .. لامن وجهة نظر حضارية ولكن من وجهة نظر الباحث عن العيوب المنقب عن العورات الغافل عن منجزاتها وقوانينها .

ولسنا ننفى أهمية تدريس تاريخ الحضارة وخاصة إذا ركزنا على هذا التاريخ كحركة دائمة فى فترة زمنية معينة .

ولكننا سنستفيد كثيراً من طرح مشكلات بعثنا الحضارى للبحث والتنقيب على يد مجموعة من المهتمين بالبعث الحضارى فاذا فرغوا من بعض دراستهم استطاع أساتذة الثقافة الإسلامية أوالتربية القومية أن يدخلوها فى مناهجهم .

ذلك أدنى أن لانتيه فى غياهب التاريخ أو أزقة الغير وأقرب للتفاعل المثمر مع عالمنا الذى نعيش فيه .

وان كثيراً من الدوامات المتشاحنة اليوم فى ساحتنا القومية نشأت أصلا من التيه العلمى فى مناهجنا التربوية الجامعية سواء كان ذلك ذات اليمين أو ذات اليسار .

أننا نظن أن هذا التيه فى مناهجنا التربوية ليس كله نتاج تخبطنا وعبثنا فحسب وإنما هو أيضاً جزء من مخطط استعمارى يعمل

على احباط كل محاولاتنا للبحث فى مهدها الأول . . أى فى أنفسنا وعقولنا . . أو قل إننا نواصل تنفيذ هذه المخططات بعد أن ذهب الاستعمار وبقيت القابلية للاستعمار .

وربما يصلح ما طرحناه فى رسالتنا هذه عن التحدى الحضارى كنقطة بدء لمجموعة بحوث تصلح حصيلتها للتدريس فى الجامعات كعلم جديد نسميه كما أسلفنا « علم نشوء الحضارة ونموها » .

إننا لا ننكر أن بعض الأساتذة النابهين فى مجال الثقافة الإسلامية أو التربية القومية يحاول أن يعطى أبعاداً حضارية لهذه المناهج . . ولكننا هنا نؤكد أن الأمر يحتاج إلى أكثر من صدفة تقع من أستاذ نابه . . إن الأمر جد لا هزل فيه ويحتاج منا إلى قول فصل .

فاذا عدنا إلى قضية شحذ الفعالية الروحية للأمة وما ضربناه مثلا لها من المعجلات الكهرومغناطيسية (السيكولوترون) فاننا نؤكد أن شحذ الفعالية ليس هدفه هو عمليات الاستبسال الدائرى التى أشرنا إليها من قبل وإنما هدفه هو المشاركة فى عمليات « التنمية القومية » .

إنه يمكن للجيوب الحضارية التى تعد فيها الشخصية القومية أن تقوم بدور هام فى الإعداد لعمليات التنمية .

لقد فقدنا الوعى الصحيح بدورنا كأفراد وجماعات فى عمليات التنمية وأصبحنا جميعاً من « أصحاب الحقوق » . . وما أدراك

ما « أصحاب الحقوق » أنها سمة التخلف فى جيلنا . . حيث أصبحنا لا نعرف إلا حقوقنا على حكومتنا . . وجهلنا تماماً واجباتنا وتكونت هنا وهناك فى عالمنا الإسلامي جمعيات وهيئات للمطالبة بالحقوق . . حقوق المرأة وحقوق العمال وغيرهم .

وقد آن لنا أن تتكون بيننا « هيئات للقيام بالواجبات » التي أغفلتها أو عجزت عنها الإدارات الحكومية .

أن سيكولوجية مدمرة تتكون عندما يعيش الإنسان فى أجواء المطالبة بالحقوق واللهث وراءها عند أجهزة غير قادرة على منحها . . حيث يصبح هذا الإنسان عبداً لوهم اسمه « الحقوق » يستبسل فى المطالبة بها وربما أعطى حياته من أجلها . . ولو أنه أنفق فى سبيل الواجب بعض ما أنفقه فى سبيل الحقوق لبلغ كثيراً مما يرجو من تقدم وازدهار .

وإذا أخلد الإنسان لوهم الحقوق ونسى وازع الواجب وعم ذلك بين أفراد المجتمع فان ذلك سوف يفكك عرى الترابط فى هذا المجتمع لاختلاف الحقوق وتعارضها .

ان التنمية فى مجتمع ما تبدأ مسيرتها عندما ينسى أفراد هذا المجتمع حقوقهم ويذكروا واجباتهم[1] . . أوليس ذلك بعض ما يحتويه هذا المبدأ المأثور :

---

(١) ولا ننسى أن حقوق فريق هى واجبات على فريق آخر .

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا

واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا »

وإن بذور التنمية تبدأ عند الإنسان « القدوة » الذى ذكر واجباته ونسى حقوقه فأعطى وبذل وصبر فى موقعه واستغرقه عمله فى إحسان كأنه العبادة أو هو العبادة ذاتها . .

إن الأمة تحتاج فى ساعات « الانقاذ التنموى » إلى النفر القدوة الذين لايسألون أين الرزق الوفير وإنما يسألون أين الواجب الكبير .

هذه القلة القدوة والتى عبر عنها القرآن العظيم : « بأولى بقية » كما جاء فى الآية الكريمة : « فلولا كان من القرون أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض » والتى تستطيع أن تقوم بمهمة الإنقاذ فى ساعات العسرة التنموية فى أمتنا . . هـذه القلة يجب أن لا يصرفنا عن تكوينها وإعدادها وتثبيتها فى مواقعها صوارف اليأس ودواعي الفرار .

وهذه ليست مهمة الدولة وحدها وإنما هي مهمة كل فرد فى قلبه جذوة حضارية من القادرين . . كما أنها مهمة جماعات تنذر نفسها لهذا العمل .

ونحسب أن المـال المسلم قد آن له الأوان أن يدخل فى مجالات

التنمية الإسلامية وينعتق من « الدورات الخبيثة » والتى يدور فيها مع أى مال خبيث . .

إننا فى حاجة إلى عثمان وابن عوف يجهزان قافلة التنمية من النفر القدوة فتنصرف القافلة إلى المهمة التى يمليها عليها الواجب الحضارى ولا تنشغل بجزئيات الرزق على المستوى الفردى ولا بمشاكل التمويل على مستوى المشروعات .

وقد آن أيضاً للوقف الإسلامى أن يجدد نشاطه فى مجالات التنمية العلمية مرة أخرى . . فنرى مؤسسات للبحث وجامعات تكنولوجية يقيمها أفراد من حر مالهم جهاداً فى سبيل الله .. نريد أن نرى فى بلاد المسلمين ما أقامه تاتا الهندى فى بلاده . . معهداً للبحوث الأساسية فى الفيزياء . . والذى أقامه وحيد الدين خان أيضاً معهداً للبحوث الإسلامية . .

وما أقامه مستر ستانفرو فى غرب أمريكا .. جامعة عملاقة من كبرى جامعات العالم .

وعلى « النفر القدوة » فى ميدان التنمية الحضارية أن يقوموا بمهمة إثارة الوعى الحضارى عند أثرياء المسلمين فيرشدوا اتفاقهم تجاه التنمية ويفتحوا لهم آفاقها . . فان كثيراً منهم لا تنقصه حمية الانفاق وإنما ينقصه الوعى الحضارى لمصارف الانفاق . . فربما

وجدت أحدهم يتطوع فى بناء مسجد فى حى لاتنقصه المساجد بينما هو فى أمس الحاجة لمدرسة أو مركز مهنى أو مستشفى .

ولقد ساقنا الحديث عن التنمية إلى دور الأثرياء فى مجالاتها لأننا نؤمن أنه فى غياب الدور الحضارى للمال يمكن أن يصبح الثراء مدمراً .

فعندما تصبح وسائل الثراء سريعة ورخيصة يبدأ المجتمع فى الانصراف عن التنمية الحقة والتى تتطلب جهداً ومشقة حيث يصبح كل هم أفراد المجتمع أن « يغترفوا من نهر طالوت »(١) ولا ينتظروا ويصبروا أمام مشاكل التنمية .

فاذا عجز النظام الاقتصادى أن يسد ثغرة هذا الثراء السريع الرخيص أصبح من مهمة النفر القدوة أن يستثيروا وجدان رجال المال فى الأمة ليوجهوا أموالهم فى عمليات التنمية .

وإن عملية الاستثارة المطلوبة يجب أن تقوم على أسس علمية ودراسات عميقة لارتباط المستقبل الحضارى للأمة بدورة المال مع بيان الإثم الكبير الذى يقع فيه الأثرياء ببحثهم عن طريق الاستثمار الراكد غير التنموى . . غير عابئين بشىء إلا الاستكثار من المال .

إنها فى النهاية مشكلة أخلاقية حيث تحدد عقيدتنا موقفاً

---

(١) قال تعالى : « فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى إلا من اغترف غرفة بيده ... » .

أخلاقياً إزاء المـال . . من أين جمع ؟ . . وفى أى مجال أنفق ؟ . . وهي مشكلة أخلاقية حيث أصبح للحلال والحرام أشكال جديدة تتعلق بالتنمية القومية وتخفى علي كثير من الرجال .. ربما لأنها لم ترد فى صفحات كتب الفقه القديمة .. ولم يظهر بيننا بعد « فقهاء للتنمية » يصلون بين « مقاصد الشريعة » وما يجـــد فى حياة النـاس فى مجـالات شتى . . بحيث يصبح الحـلال بيناً والحرام بيناً ويمضى الناس في أمور دينهم ودنياهم على بصيرة .

إننا وقد أحاط بنا طوفان الحضارة العالمية المعاصرة لم نستطع أن نواكب التغيير السريع فى حياتنا بتغيير فى طرق اعداد « الفقيه المرجو » فى مجالات التنمية المختلفة . . ولذلك لم تكن خيبة أملنا فى فقهائنا إلا نتيجة حتمية لاهمالنا إعدادهم وغفلتنا عن الشروط الموضوعية ليصبح الفقيه فقيهاً . .

وفى ختام هذه العناصر من شحذ الفعالية الإجتماعية للأمة نحب أن نؤكد أن حركة النفر القدوة فى سعيهم الحضارى ليس من الطبيعى أن تكون فى قالب واحد .. وليس ضرورياً كذلك أن يعمل النفر القدوة جميعاً من خلال تنظيمات جماهيرية . . فان إبراهيم كان أمة وحده . . ولم يكن مالك بن نبي عضوا فى حزب ما أو جمعية معينة رغم ما أثرانا به من دراسات حضارية فى غاية التوفيق . . وإنما يمكن لحركة النفر القدوة أن تشمل كل العاملين من أجل قيام حضارة تنبع من عقيدة واحدة . . وإن اختلفت بهم الوسائل

فهذا يـكتب منفرداً وذلك يعمـل فى إطار التنمية القوميـة من خلال أجهزة الدولة وهؤلاء يكونون جماعـــة للتربية وآخرون يكونون مؤسسة للتعليم ومجموعة تكون هيئة مهنية لخدمة التنمية المهنية فى مجال بعينه . . وهكذا أفراد وجماعات وأحزاب كلها تعمل فى اتجاه واحد . . يكمل بعضها بعضا . . « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى . . وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

ملحـــــق

حول الاحتمال الحضارى والإمكان الحضارى :

لقد استعرنا لفظتى الاحتمال والإمكان الحضاريين من أستاذنا مالك بن بنى ولكننا تجاوزنا بهما استعماله لهما .

فالإحتمال الحضارى فى سياقنا لايتمثل فقط فى تجاوز الشرط المكانى الذى تحدثنا عنه فى إطار الشروط الموضوعية ولا يتمثل كذلك فى إطار كنوز التراث الخامدة فى عقول الناس وإنما يتمثل فى إنسان متأهب للبناء فى ظل شروط مواتية منها الشرط المكانى مع كل ماذكرناه من قبل من شروط أخرى .

إن وجود هذا الإنسان متكاملا مع كل ما أسلفنا من شروط هو ما نعنيه نحن بكلمة الإحتمال الحضارى .

ومن هذا المنظور نبصر أن إنسان يثرب كان يملك احتمالا حضارياً ضخماً بما كان يملك من تأهب للبناء وعالمية الرسالة التى حققت له كل الشروط اللازمة للانطلاق .

وإن الذين بلغت قلوبهم الحناجر من وراء الخندق الذى كانوا يحفرونه مع رسول الله ﷺ فى غزوة الأحزاب ما كانوا يبصرون عظمة الإحتمال الحضارى فى نفوسهم ورسول الله صلوات الله

وسلامه عليه ينبئهم وهو يضرب الصخرة المستعصية بمعوله بأنهم سيرثون حضارة العالم من حولهم — لقد كان هذا الإحتمال بعيداً بعيداً عن أفئدة كثيرين منهم حتى أن بعضهم ليعجب كيف يبشرهم رسول الله بهذا بينما لايستطيع أحدهم أن يقضى حاجته مخافة العدو الذي أحاط بالمدينة من كل جانب .

وبعد خمسة قرون من هذا الحدث العظيم فى غزوة الأحزاب ، كان الإنسان المسلم يملك إمكاناً حضارياً ولكنه بدأ يفقد الإحتمال الحضارى . لقد كان يملك الإمكان الحضارى بما كان يملك من وسائل الحضارة فى عصره .. ولكنه لم ينتبه لأمراض الحضارات عندما تبلغ الأوج فاستسلم لها لتفتك به .. ولو قيل لهذا الإنسان يومها إنك بدأت تفقد احتمالك الحضارى رغم ضخامة إمكانك لارتاب كما ارتاب كثيرون يوم الأحزاب .. ولا ندرى هل كانت صيحة العبقرية عند بن خلدون خافتة فلم يسمعها أهل جيله ؟ .. أم أنها جاءت متأخرة حيث تمكن المرض وولت الفرصة ؟ ..

أو ربما لأن بن خلدون كان مفكراً عبقرياً ولم يكن مصلحاً عبقرياً فلم يصنع للناس شراباً يسقيهم به أفكاره العظيمة ؟

ومن خلال نظرتنا هذه نستطيع أن نقول إننا اليوم لانملك الإمكان الحضارى ومازلنا لا نملك الإحتمال الحضارى .

إن مثالا معاصراً يزيد هذا الأمر وضوحاً . إنه مثال ألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية . لقد كانت هذه الدولة تملك احتمالا حضارياً ضخماً رغم فقدانها للامكان الحضاري واستطاعت في فترة وجيزة أن تعيد لنفسها الإمكان الحضاري في أبهى صوره المعاصرة . إن أهم عنصر في هذا الإحتمال الحضاري كان هو الإنسان الألماني المتأهب للبناء المتحفز للانطلاق .

وفي ختام هذه الملاحظة نشير إلى أن الإحتمال الحضاري يسبق دائماً الإمكان الذي يصدر عنه بفترة زمنية معينة ربما وصلت في بعض الأحيان إلى عدة أجيال .. فهؤلاء الذين يعيشون في إمكان حضاري معين ليسوا هم الذين صنعوا احتماله .. إنهم يجنون ثمرات جهاد أجدادهم .. وعليهم أن يصنعوا احتمالا حضارياً للأجيال التي تأتي من بعدهم .. وعندما تنسى الأجيال الحاضرة هذا الواجب تبدأ الحضارة في الأفول . . حيث ينسى التمتع بالإمكان الحضاري العمل على استمرارية الإحتمال الحضاري .

إن هذه الازدواجية بين الإحتمال الحضاري والإمكان الحضاري مبدأ في غاية الأهمية وهو بعض ما تشير إليه الآية الكريمة :

« إن مع العسر يسرا »

فالعسر هو الجهاد الدائم الذي يصنع الإحتمال الحضاري واليسر

هو التمتع بما ينتج عن هذا العسر من إمكان حضارى . وكأن القرآن يؤكد لنا حتمية وقوع الإمكان الحضارى إذا تحقق فى حياة الناس احتمال حضارى وذلك باستخدام القرآن للكلمة « مع » .. فبهذه الكلمة يؤكد القرآن تكون الإمكان « مع » تكون الاحتمال ، وإن احتجب عن الظهور فى فترة قد تصل إلى أجيال .

حول كلمة التراث :

التراث فى استعمالنا له فى هذا البحث هو حصيلة الجهد البشرى العقلي الذى تراكم خلال العصور المتلاحقة فى أمتنا سواء حوته بطون الكتب أو حفظته صدور الرجال .

وأول ملاحظة نلاحظها عن فاعلية التراث في حياتنا أن التراث ذو « ذاكرة عقيدية » . أى أن التراث الفعال فى الحاضر إنما نشأ فى أجيال مضت تؤمن بنفس العقيدة التى نؤمن بها اليوم . أما التراث الذى تكون فى أجيال خلت من قبل وكانت تؤمن بعقائد أخرى فانه لايبقى منه إلاالتراث الخامد أو الذكرى الخافتة .

ولعل أبلغ مثال على ذلك هو التراث الإسلامى والتراث الفرعونى عند المصريين . ففاعلية التراث الإسلامي فى المجتمع المصرى تنبع من أنه كان حصيلة جهد أجيال تؤمن بنفس العقيدة وإن لم تكن من نفس الوطن بينما يبقى التراث المصرى الفرعونى خامداً فى تماثيله وأهراماته وموميااته .

والملاحظة الثانية هي أن التراث قد تراكم لدينا خلال مراحل حضارية مختلفة تبدأ بمرحلة الاقلاع فمرحلةالازدهار فمرحلة الهبوط والانحطاط ومابينهما من مراحل جزئية .

من أجل ذلك ومن أجل الاستفادة القصوى من التراث يجب أن نوجد « دالة ارتباط » « Correlation Function» بين المراحل المختلفة فى نمونا الحالى وبين المرحلة المشابهة فى تراثنا الحضاري بحيث نتجنب التراث الذى نشأ فى المراحل الأخرى .

وكما قلنا من قبل فان التراث قد انتقل إلينا عبر آلاف الكتب أو ماحفظته صدور الرجال أو ماترسب فى أعماقنا وتكون فى سلوكنا عبر التاريخ الطويل . وإننا ندرك أن كل الوسائل التى أشرنا إليها كطرائق لنقل التراث إلينا تخضع للقوانين التى تحكم عملية سريان المعلومات من مكان إلى مكان أو من زمن إلى زمن وأنه لا بد أن يكتنفها جزء من ضباب الخطأ أوالنسيان أوالضلال.. ولذلك فلا بد أن نتبع الطرائق الحديثة فى عملية غربلة المعلومات مما اختلط بها أثناء نقلها عبر الزمان والمكان .. أى لابد من محاولة لتطبيق « نظرية المعلومات » « Information theory » على غربلة التراث . ولن نكون بذلك مبتدعين فان علماءنا من قبل قد استحدثوا علماً شبيهاً بهذا — ولكن بوسائل عصرهم العلمية — أسموه علم الرجال .. فى محاولة لتحديد أحد مصادر الخطأ وهو نوعية الرواة وأخلاقهم وغفلتهم أو انتباههم . من هنا نظن أن قضية الضباب الذى يكتنف سريان المعلومات عبر الزمان والمكان وقضية الربط الخاطىء بين فترات غير متشابهة فى المنحنيات الحضارية قضيتان هامتان يجب بحثهما بجدية تامة عند محاولة الاستفادة من التراث .

والملاحظة الثالثة هو أن التراث يمكن أن يصبح عائقاً حضارياً إذا لم يتحول لدينا إلى ثقافة مركزة فى مبادىء واضحة تغنينا عن تتبع الجزئيات المتناثرة فى الركام المكدس ..

إن المثال الذى أوردناه من قبل عند تطور التراث الميكانيكى للبشرية لخير دليل على ما نقول ، فكما قلنا من قبل كان علم الميكانيكا قبل كبلر حشداً هائلا من المعلومات التي تصف حركة الكواكب فى السماء ولكن استطاع كبلر أن يختصر هذا الركام الهائل من المعلومات فى قوانينه الثلاثة المشهورة وبهذا أغنى الإنسانية عن حمل هذا العبء الثقيل فوق كتفها فمضت متخففة عن هذا كله بثلاثة قوانين لا تزيد عن نصف صفحة .

إن المطلوب إذن هو أن يتفرغ للفقه الإسلامي بعض الباحثين لغربلته أولا ثم تركيزه ثانياً ، فان حادثة ما فى تاريخنا أدت إلى رأي فقهى دون فى كتبنا .. يمكن أن تفسد مقاييسنا الفقهية إذا لم نتأكد من مجموعة من النقاط . . نتأكد أولا من جزئيات الحادثة عن طريق غربلة الروايات المتعلقة بها ثم ننظر فى الفقيه وعلمه ثم ننظر فى أدلته ثم ننظر فى سريان الرواية إلينا عبر الزمان والمكان .

ورغم كل هـذا فنحن نميل إلى الرأى الذي يقول : أن أعظم ما تفيده من كتب التراث هو ما كتب عن الأصول والقواعد والقوانين . . من أمثلة ما كتبه الإمام الشافعى فى أصول الفقه (كتاب الرسالة) أو ما كتبه بن خلدون فى علم الاجتماع والتاريخ

(مقدمةابن خلدون) . . وهذا النوع من الكتب هو أولى باهتمامنا تنقيحاً وتحقيقاً ودراسة .

وقبل أن نختتم هـذه الملاحظات عن التراث نحب أن نؤكد أن البحث في التراث هام من وجهة نظر تربوية . إننا نستطيع أن نتعلم الكثير ونحن نرقب ديناميكية التغيير الاجتماعى فى مراحلنا الحضارية السابقة .. فنتعلم الكثير عن شخصيتنا القومية .. فربما يعنينا ذلك على فهم وتوجيه حركتنا الحاضرة والمستقبلية باذن الله .

حول لفظة الفعالية :

تستخدم لفظة الفعالية بكثرة فى علم الديناميكا الحرارية فيما يتعلق بقدرة آلة معينة علي تحويل صورة من صور الطاقة إلى صورة أخرى . فنى هذا المجال تعرف الفعالية الحرارية لآلة احتراق داخلي على أنها النسبة بين العمل الميكانيكى الذى تقوم به الآلة إلى الطاقة الحرارية التى أنتجها الاحتراق الداخلي فى باطنها .

ويؤكد القانون الثانى للديناميكا الحرارية أن هذه النسبة لايمكن أن تبلغ الواحد الصحيح .. أي أنه لايمكن تحويل الطاقة الحرارية إلى عمل من غير أن نفقد جزءاً من هذه الحرارة .

ونحن فى هـذا البحث نستخدم اللفظ فى إطار مضمونه العلمى من حيث قدرة الإنسان علي تحويل الطاقات المكدسة فيه إلى عمل نافع بأمثل الطرق العلمية المتاحة له فى عصره . إننا مثلا نستطيع أن نكدس كمية من العلوم بطرق مختلفة عند مجموعة من الأشخاص .. ونرقب بعد ذلك تحول هـذا العلم إلي عمل . . ولسوف نشاهد أن الطرائق المختلفة التى استخدمناها فى تعليم النفر التجربة والظروف المختلفة التى تؤثر فى كل منهم قد أثرت على كمية العمل الذى أنتجها علم هؤلاء .

فى مجال العلوم الدينية يمكن أن تصبح الفعالية صفرا كما كان

حال أولئك اليهود الذين وصل بهم حالهم إلى أن أصبحوا « كمثل الحمار يحمل أسفاراً » .

ويمكن أيضاً أن تصبح الفعالية عظيمة كما فى حالة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب وتميز فقهه رغم قلة حفظه .

وفى عالمنا الإسلامي انتشر بين الناس حفظ المجلدات الضخمة وتستطيع أن تلقى الكثيرين الذين يحفظون كتاباً ضخماً فى الحديث كالبخاري وسوف تفاجأ إذا سألتهم سؤالا — يحتاج إلى فقه — بجواب ما أنزل الله به من سلطان . فالفعالية العلمية هنا تكاد تكون صفراً .

إننا أحياناً نركز الدعاء النبوى الخالد : « اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع » فى ماهية العلم نفسه ولكن الدعاء أشمل من هذا .. فيمكن أن يكون الداء فى الوعاء نفسه لا فى العلم . . أى أن تكون الفعالية صغيرة فلا ينتفع المجتمع بهذا العلم[1] .

فالذي يحفظ القرآن الكريم ولكنه لا يتدبره ولا يتفقه فيه هو طاقة علمية مضيعة لم ينفع نفسه ولم ينفع مجتمعه .

---

(١) ونذكر هنا حديث الرسول العظيم : « إن مثل ما بعثنى به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا . وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله تعالى به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

وإن الذي نقوله في ميدان العلوم الدينية ينطبق على كل أنواع العلوم . ففي مجال العلوم الهندسية مثلا لابد أن يزيد المجتمع من فعاليته حتى يصبح هناك تحول دائم من العلم إلى التكنولوجيا . وفي سبيل ذلك لابد أن تدرس وسائل التعليم الهندسي بعناية لتحقق في عقلية المهندس الفعالية القادرة على إنجاز التحويل المرجو .

إننا ندرك أن هناك فترة زمنية تفصل بين العلم والتكنولوجيا وندرك أيضاً أن هذه الفترة تطول وتقصر متأثرة بالفعالية العلمية في المجتمع . وعلى كل حال فهذا موضوع يحتاج إلى بحوث متصلة نرجو أن يفرغ لها القادرون عليها .

وما قلناه آنفاً عن الفعالية العلمية يمكن أن يقال عن الفعالية الروحية . فان ما يضاف إلى النفوس من طاقات روحية يجب أن يتحول إلى خير المجتمع .. فاذا لم يحقق ذلك وأصبحت الروحية عزلة ورهبانية أصبحت معها الفعالية الروحية صفراً وفقدنا ما بذلناه في هذه النفوس من طاقات روحية . فالصلاة طاقة روحية يمكن أن تعطي النفس السكينة والطمأنينة فيستقبل المؤمن الحياة وصعابها بخطى واثقة .. أي أن الصلاة تؤدي هنا عملا اجتماعياً فهي صلاة فعالة .. ويمكن عند بعض الناس أن تنقطع عن المجتمع فينقطع صاحبها لها كأنها هي غاية الحياة فيفتقده مجتمعه وتحيط به روحيته ويفقد التوازن بين عالم المادة وعالم الروح في تكوينه الإنساني .

ويصبح هذا الإنسان مثل أولئك الذين يصفهم القرآن فيقول : « ورهبانية ابتدعوها .. ما كتبناها عليهم » .

إن متصوفة الهنود يستطيعون بمجاهدة نفسية شاقة أن يدربوا أنفسهم على خوارق بالنسبة للانسان العادى كما تشف كثير من رؤاهم . ولكن هذا كله بالنسبة للمجتمع معدوم الفعالية .

ويستطيع راهب متنسك فى ديره أن يصل إلى حالة عظيمة من الشفافية النفسية ولكن فاعليته كذلك معدومة .

إننا نحتاج فى ساعات الإقلاع الحضارى إلى روحية اجتماعية ونحن نؤمن أن أعظم مثال لها هو رسول الله ﷺ . إن هذه الروحية الاجتماعية تتلخص فى الأصول الآتية :

* تعبد مكثف يصل الإنسان بالله فى ساحات الزمان والمكان .
* زهد عظيم فى متاع الحياة الدنيا .
* عطاء بلا حدود للمجتمع .

يحيط بذلك كله نور الرضا الذى يمسح على القلوب الحزينة فى ساعات العسرة . وكلما حققنا مزيداً من هذه الأصول كلما شحذت فعاليتنا الروحية .

إن فترة الإقلاع الحضارى تحتاج إلى فعالية روحية ضخمة .. أكبر من أى فترة أخرى من فترات النمو الحضارى .

إنه حيثما كانت هناك طاقة وإنسان كانت هناك فعالية . فمثلا الفعالية التراثية هى قدرة الإنسان على التفاعل مع التراث — وهو طاقة بين يدى الإنسان — والإفادة منه لخير المجتمع .

وفى ختام هذه الملاحظات نشير إلى أننا نعنى بالفعالية الاجتماعية للانسان متوسط كل فعالياته المختلفة .

ملحق عن إعداد الفقهاء والمتخصصين :

حتى تتناغم مهمة الفقهاء والمتخصصين لابد من إعادة النظر فى مناهج إعدادهم . فلابد من قدر كبير من التعليم الإسلامى فى مناهج المتخصصين حتى تصبح منطلقاتهم فيما بعد منطلقات إسلامية .. ولكننا فى نفس الوقت نحذر من أن تكون الجرعة الإسلامية كلها فى جزئيات التراث .. وإنما يجب أن يكون معظمها فى الأصول . ولذلك نرى أن مناهج إعداد المتخصصين يجب أن تدور معظمها حول القرآن ... فالقرآن الكريم هو الينبوع الذى لاينبض للحكمة والعلم .

أما فيما يختص باعداد الفقهاء فلاتثريب على المناهج أن تحتوى على دراسات فى جزئيات التراث .. على أن يكون هناك متسع لجرعة فى أصول التخصصات الحديثة وطرائق البحث الحديث .

وبالنسبة للدراسات القرآنية للمتخصصين ليس من الضرورة ربطها بنظريات حديثة وإنما يكفى معايشة المدارس الدائمة للقرآن وماقد تحدثه هذه المعايشة عند الكثيرين من إيحاءات وقيم ومقاييس تؤتى أكلها فيما بعد .

الفهـــرس